لباب
جنود العقل والجهل
للإمام الخميني قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

- لُباب جنود العقل والجهل للإمام الخميني قدس سره
- إعداد: الدكتور إياد الأرناؤوطي/ جامعة بغداد
- الناشر: دار الولاية للثقافة والإعلام
  مركز التبليغ الإسلامي
- الإخراج الفني: علي الهاشمي

لُبَابُ
جُنُودِ العَقْلِ وَالجَهْلِ
لِلإِمَامِ الخُمَيْنِيِّ قدس سره

د. إياد محمد علي الأرناؤوطي

جامعة بغداد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

www.facebook.com/tableegh
twitter.com/tableegh
m.t.i.114@hotmail.com
+٩٨-٩٣٦٤٦٧٧٥٦٣

www.alwelayah.net
alwelayah@alwelayah.net
+٩٨-٢٥-٣٧٧٣٨٣٧١
+٩٨٩٣٠٩٢٦٩٠٤٨

قال الإمام الخميني قدس سره:

«إن المقصود المهم من صدور هذه الأحاديث الشريفة، والمقصد الأسنى من بسط العلوم الإلهية، ليسا ـ وما كانا قطّ ـ إفهام النكات العلمية، والفلسفية، والجهات التاريخية، والأدبية، بل الغاية القصوى منها تخفيف أثقال النفوس من عالم الطبيعة المظلم، وتوجيه الأرواح إلى عالم الغيب، وانقطاع طائر الروح عن أغصان شجرة الدنيا، التي هي أصل الشجرة الخبيثة»

جنود العقل والجهل ص ٧ ـ ٨

مقدّمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[1]؛ وصلّى الله على رسوله الكريم، محمّد، سيّد العالمين وصفوتهم، وتاج النّبيّين وغرّتهم، وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين، أعلام الهدى، وبيارق التّقى، أولياء الله في بريّته، وبقيّة رسوله في أمّته.

أمّا بعد:

فكتاب «جنود العقل والجهل» للإمام الخميني قدس سره كتاب أخلاقي، عميق الغور، أنيق الأسلوب، خطّه جهبذ من جهابذة العلم، ومعلم من معالم العرفان، يكفي اسمه تعريفا به.

الكتاب علميّ تربويّ، يخاطب العقل بالحجج البالغة، والقلب

---

(١)الكهف: ١

بالأحاسيس المثيرة، فتذعن النفوس، وتدمع العيون، وتقشعرّ الجلود؛ ولاختصار الكتاب، وتقريبه أكثر، ولا سيّما من أذهان غير المتخصّصين، ونحن نعيش في زمن تعقّدت فيه مظاهر الحياة، وتشعبت أغصانها، توكلت على الله سبحانه، واستخلصت لباب الكتاب بما يساوي ربعه تقريبا، معتمدًا النسخة العربية التي ترجمها العلامة السيد أحمد الفهري، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ، لعدم معرفتي باللغة الفارسية؛ وسالكًا المنهج الآتي:

١. الحفاظ على أسلوب الإمام المؤلف، فلم أغيّر في عباراته إلّا المقدار اليسير.

٢. استخلاص بؤر الدلالة المركزيّة في كل مقصد، وإبرازها على نحو ييّسر على القرّاء جهد الوقوف عليها.

٣. الحفاظ على السمة التربوية للكتاب، بخطاباته المؤثرة.

٤. مع مراعاة ما مرّ، سعيت لأن يكون «اللباب» بأصغر حجم ممكن، إذ كنت أعيد النظر في العبارة مرارًا، لأستغني عن أيّ مفردة يمكن الاستغناء عنها، من دون أن يحدث خلل في البيان.

٥. لم أثبت البحث النظري عن حقيقة العقل في أول الكتاب، لإمكانية الاستغناء عنه، ولا سيما أني أردت من اللباب الفائدة العملية في تزكية النفس.

٦. خرّجت الأحاديث غير المخرّجة من المصادر الحديثية إتمامًا للفائدة.

ختامًا ما في «اللباب» من حسنة فالإمام الخميني قدس سره أولى بها، وما فيه من سيئة فهو من قصوري، أو تقصيري، فأسأل ربي المغفرة، وأسأل أخواني المؤمنين الدعاء.

والحمد لله أولًا وآخرًا

إياد الأرناؤوطي

مشهد المقدسة في الثاني عشر

من رمضان عام ١٤٣٦هـ

مقدمة المترجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يا واهب العقل لك المحامد إلى جنابك انتهى المقاصد

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسوله، الذي أرسله لينقذ عباده من الجهالة، وحيرة الضلالة، وأيده بجنوده ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]؛ وعلى آل محمد: أئمة الهدى، وأولي الحجى، الراشدين، المهديين.

وبعد: سفر عظيم، وكتاب جليل، نضعه بين يدي القراء الأعزاء؛ ليكون لهم معينًا عذبًا، ينهلون منه فكرًا صافيا، وعلما نافعا، وعرفانا فياضا، وأدبا بارعا؛ وحسبهم أن هذا الكتاب الجليل هو آخر ما ألّفه إمام الأمة، سيد البلغاء، وقدوة الأتقياء، قائد الثورة الإسلامية، ومؤسس جمهوريتها، الإمام روح الله الموسوي الخميني قدس سره، راجيًا من الله تعالى

---

(١) الفتح: ٤

مجده، أن يكون لي، ولمن ساهم في إعداده، وطبعه، من الثلاث التي لا ينقطع منها عمل ابن آدم بموته، المعبر عنها بقوله صلى الله عليه وآله: إذا مات ابن آدم انقطع من الدنيا عمله إلا من ثلاث.... وورقة علم ينتفع بها. والله من وراء القصد.

السيد أحمد الفهري

غرة شهر سيد الرسل ١٤٢١هـ.

لُباب مقدمة الإمام الخميني قدس سره

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

الأول: لا يريد الكاتب البحث في الجهات العلمية لهذا الحديث الشريف؛ لأنّ الغاية القصوى من هذه الأحاديث هي تخفيف أثقال النفوس من عالم الطبيعة المظلم، وتوجيه الأرواح إلى عالم الغيب، وانقطاع طائر الروح عن أغصان شجرة الدنيا التي هي أصل الشجرة الخبيثة، وإطارته إلى فضاء عالم القدس، ومحفل الأنس، الذي هو روح الشجرة الطيبة؛ وهذا لا يحصل إلا بتصفية العقول، وتزكية النفوس، وإصلاح الأحوال، وإخلاص الأعمال.

الثاني: جميع العلوم المعتبرة مقدّمات، وكل منها مقدمة لشيء، فعلم التوحيد، والتوحيد العلمي، مقدمة لحصول التوحيد القلبي، الذي هو توحيد عملي، ويحصل بالتأمّل، والتذكر، والارتياض القلبي. فلرب

أشخاص صرفوا العمر في التوحيد العلمي، وصرفوا الوقت بالمطالعة، والبحث، والتعليم، والتعلم؛ ولكن لم يجدوا صيغة التوحيد؛ ولم يصبحوا علماء إلهيِّين، أو حكماء ربانيّين، بل تزلزلت قلوبهم أكثر من غيرهم، لعدم اشتغالهم بالرياضات القلبيّة، وزعمهم أن هذا الطريق يُطوى بالمدارسة حسب.

الثالث: مقصد القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، هو تصفية العقول، وتزكية النفوس، لحصول المقصد الأعلى، وهو التوحيد.

الرابع: لا بد من أن يكون كتاب الأخلاق موعظة مكتوبة، يعالج بنفسه الآلام، والعيوب؛ فلا بد من أن يكون كلام الطبيب الروحاني بمنزلة الدواء، لا بمنزلة الوصفة.

في الحديث الشريف تيمُّنًا وتبركًا

عنْ سَماعَةَ بْنِ مِهْرانَ، قالَ: «كنتُ عنْدَ أبي عبْدِ اللهعليه السلام وَعِنْدَهُ جَماعَةٌ مِنْ مَواليهِ فَجَرى ذِكْرُ العَقْلِ وَالجَهْلِ، فَقالَ أَبُو عَبْدِ اللهعليه السلام: **اعْرِفوا العَقْلَ وَجُنْدَهُ وَالجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا**. قالَ سماعَةُ: فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِداكَ لا نَعْرِفُ إلاّ ما عَرَّفْتَنا، فَقال أبو عَبْدِ اللهعليه السلام: **إنَّ الله خَلقَ العَقْلَ وَهُوَ أَوَّلُ خَلْقٍ مِنَ الرُّوحانِيِّينَ عَنْ يَمينِ العَرْشِ مِنْ نُورِهِ فَقالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ** قالَ لَهُ: **أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، فَقالَ الله تَعالى: خَلَقْتُكَ خَلْقًا عَظِيمًا، وَكَرَّمْتُكَ عَلى جَمِيعِ خَلْقِي. قالَ: ثُمَّ خَلَقَ الجَهْلَ مِنَ البَحْرِ الأجاجِ ظُلْمانِيًّا، فقالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَلَمْ يُقْبِلْ، فَقالَ لَهُ: اسْتَكْبَرْتَ فَلَعَنَهُ، ثُمَّ جَعَلَ لِلْعَقلِ خَمْسَةً وَسبْعينَ جُنْدًا، فَلَمّا رَأى الجَهْلُ ما أَكْرَمَ الله بِهِ العَقْلَ وَما أَعْطاهُ أَضْمرَ لَهُ العَداوَةَ، فَقالَ الجَهْلُ: يا رَبِّ، هذا خَلْقٌ مِثْلِي خَلَقْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ وَقَوَّيتَهُ، وَأَنَا ضِدُّهُ وَلا قُوَّةَ لي بِهِ فَأَعْطِنِي مِنَ الجُنْدِ مِثْلَ ما أَعْطَيْتَهُ. فَقالَ: نَعَمْ، فَإنْ عَصَيْتَ بَعْدَ ذلِكَ أَخْرَجْتُكَ وَجُنْدَكَ مِنْ رَحْمَتي. قالَ: قدْ رَضِيتُ، فَأَعْطاهُ خَمْسَةً وَسَبْعينَ جُنْدًا، فكانَ مِمّا أَعْطَى العَقْلَ مِنَ الخَمْسَةِ وَسَبْعِينَ الجُنْد: الخَيْرُ وَهُوَ وَزِيرُ العَقْلِ، وَجَعَلَ ضِدَّهُ الشَّرَّ وَهُوَ وَزِيرُ**

الجُهْلِ، وَالإيمانُ وَضِدَّهُ الكُفْرَ، وَالتَّصْديقُ وَضِدَّهُ الجُحُودَ، وَالرَّجاء وَضِدَّهُ القُنُوطَ، وَالعَدْل وَضِدَّهُ الجَوْرَ، وَالرِّضا وَضِدَّهُ السَّخَطَ، وّالشُّكْر وَضدَّهُ الكُفْرانَ، والطَّمَعُ وَضِدَّهُ اليَأْسَ، وَالتَّوَكُّلُ وَضِدَّهُ الحِرْصَ، وَالرَّأْفَةُ وَضِدّهَا القَسْوَةَ، وَالرَّحْمَةُ وَضِدَّهَا الغَضَبَ، وَالعِلْمُ وَضِدَّهُ الجَهْلَ، وَالفَهْمُ وَضِّدَهُ الحُمْقَ، وَالعِفَّةُ وَضِدّهَا التَّهَتُّكَ، والزُّهْدُ وَضِدّهُ الرّغْبَةَ، والرِّفْقُ وَضِدَّهُ الخُرْقَ، وَالرَّهْبَةُ وَضِدَّهَا الجُرْأةَ، وَالتَّواضُعُ وَضِدَّهُ الكِبْرَ، وَالتُّؤَدَةُ وَضِدَّهَا التَّسَرُّعَ، وَالحِلْمُ وَضِدَّهُ السَّفَهَ، وَالصَّمْتُ وَضِدَّهُ الهَذَرَ، وَالاسْتِسْلامُ وَضِدَّهُ الاسْتِكبارَ، وَالتَّسْلِيمُ وَضِدَّهُ الشَّكَّ، وَالصَّبْرُ وَضِدَّهُ الجَزَعَ، وَالصَفَحُ وَضِدَّهُ الانْتِقامَ، وَالغِنى وَضِدَّهُ الفَقْرَ، وَالتَّذَكّرُ وَضِدَّهُ السَّهْوَ، وَالحِفْظُ وَضِدَّهُ النِّسْيانَ، وَالتَّعَطُّفُ وَضِدَّهُ القَطِيعَةَ، وَالقُنُوعُ وَضِدَّهُ الحِرْصَ، وّالمُواساةُ وَضِدَّهَا المَنْعَ، وَالمَوَدَّةُ وَضِدَّهَا العّداوَةَ، وَالوَفاءُ وَضِدَّهُ الغّدْرَ، وَالطّاعَةُ وّضِدَّها المَعْصِيَةَ، وَالخُضُوعُ وَضِدّهُ التَّطاوُلَ، وَالسَّلامَةُ وَضِدَّهَا البَلاءَ، والحُبُّ وَضِدَّهُ البُغْضَ، وَالصِّدْقُ وَضِدَّهُ الكِذبَ، وَالحَقُّ وَضِدّهُ الباطِلَ، والأَمانَةُ وَضِدَّهَا الخِيانَةَ، وَالإخْلاصُ وَضِدّهُ الشّوْبَ، وَالشَّهامَةُ وَضِدَّهَا البَلادَةَ، وَالفَهْمُ وَضِدَّهُ الغَباوَةَ، والمَعْرِفَةُ وَضِدَّهَا الإنْكارَ، وَالمُداراةُ وَضِدَّها المُكاشَفَةَ، وَسَلامَةُ الغَيْبِ وَضِدَّهَا المُماكَرَةَ، وَالكِتْمانُ وَضِدَّهُ الإفْشاءَ، وَالصَّلاةُ وَضِدّهَا الإضاعَةَ، وَالصَّوْمُ وَضِدّهُ الإفْطارَ، وَالجِهادُ وَضِدَّهُ النُّكُولَ، وَالحَجُّ وَضِدَّهُ نبذ الميثاق، وَصَوْنُ الحَدِيثِ وَضِدَّهُ النميمة، وَبِرُّ الوَالِدَيْنِ وَضِدَّهُ

العُقُوقَ، وَالحَقيقةُ وَضِدَّهَا الرّياءَ، وَالمَعْرُوفُ وَضِدَّهُ المُنْكَرَ، والسّتْرُ وَضدّهُ التّبَرّجَ، وَالتّقِيّةُ وَضِدّهَا الإذاعَةَ، والإنْصافُ وَضِدّهُ الحَمِيَّةَ، وَالتَّهْيِئَةُ وَضِدَّهَا البَغْيَ، وَالنَّظافَةُ وَضِدَّهَا القَذَرَ، وَالحَياءُ وَضِدَّهُ الخَلْعَ، وَالقصْدُ وَضِدَّهُ العُدْوانَ، وَالرّاحَةُ وَضِدَّهَا التَّعَبَ، وَالسُّهُولَةُ وَضِدَّهَا الصُّعُوبَةَ، وَالبَرَكَةُ وَضِدَّهَا المَحْقَ، وَالعافِيَةُ وَضِدَّهَا البَلاءَ، وَالقَوامُ وَضِدَّهُ المُكاثَرَةَ، وَالحِكْمَةُ وَضِدَّهَا الهَوى، وَالوَقارُ وَضِدَّهُ الخِفّةَ، وَالسَّعادَةُ وَضِدَّهَا الشَّقاوَةَ، وَالتّوْبَةُ وَضِدَّهَا الإصْرارَ، وَالاسْتِغْفارُ وَضِدَّهُ الإغْتِرارَ، وَالمُحافظَةُ وَضِدَّهَا التَّهاوُنَ، وَالدَّعاءُ وَضِدَّهُ الاسْتِنْكافَ، وَالنَّشاطُ وَضِدَّهُ الكَسَلَ، وَالفَرَحُ وَضِدَّهُ الحُزْنَ، وَالْأُلْفَةُ وَضِدَّهَا الفُرْقَةَ، وَالسَّخاءُ وَضِدَّهُ البُخْلَ.

وَلا تَجْتَمِعُ هذِهِ الخِصالُ كُلُّها مِنْ أجْنادِ العَقْلِ، إلاّ في نَبِيٍّ، أوْ وَصيّ نَبِيٍّ، أوْ مُؤْمِنٍ امْتَحَنَ الله قَلْبَهُ لِلإيمانِ؛ وَأمّا سائِر ذلِكَ مِنْ مَوالينا، فَإنَّ أحَدَهُمْ لا يَخْلو مِنْ أنْ يَكُونَ فيهِ بَعْضُ هذِهِ الجُنُودِ حَتّى يَسْتَكْمِلَ، وَيَنْقى مِنْ جُنُودِ الجَهْلِ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَكُونُ فِي الدَّرَجَةِ العُلْيا مَعَ الْأَنْبِياءِ، وَالأَوْصِياءِ؛ وَإنَّما يُدْرَكُ ذلِكَ بِمَعْرِفَةِ العَقْلِ وَجُنُودِهِ وَمُجانَبَةِ الجَهْلِ وَجُنُودِهِ، وَفَّقَنَا الله وَإيّاكُم لِطاعَتِهِ وَمرْضاتِهِ»[1].

(١) أصول الكافي، الجزء الأول، كتاب العقل والجهل، ح: ١٤

المقصد الأول

الخير وضده الشر

المقصود من الفِطَر أمور يتفق عليها جميع البشر، ولا تؤثر فيها عادة، أو مذهب، أو محيط، أو أخلاق؛ ولا تغيرها وحشية، أو تمدن، أو بدوية، أو حضرية، أو علم، أو جهل، أو إيمان، أو كفر، وغيرها من الأمور التي تندرج في سلسلة البشر. وأنّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعنايته، ورعايته، ويد قدرته، التي خمر بها طينة آدم الأوّل، أعطاه فطرتين، هما أصل جميع الفِطَر التي خمّرت في الإنسان، وبقيَّة الفطر أغصانهما، وأوراقهما:

إحداهما: أصلية، وهي فطرة عشق الكمال المطلق، والخير، والسّعادة المطلقة، وهي مخمّرة ومطبوعة في ذات كل إنسان: السعيد والشقي، والعالم والجاهل، والعالي والدّاني.

والأخرى: تبعيّة، وهي فطرة النُّفور من النَّقص، والابتعاد عن الشَّر والشَّقاوة، وهذه مخمّرة بالعرض، وبتبعية فطرة التوق إلى الكمال.

فالمقصود من الخير في الحديث الشريف، هو حقيقة الفطرة التي أشير إليها في الآية الشريفة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]. وهو وزير العقل، وجميع الجنود العقلية تحت تصرفه، وهو الفطرة المخمرة المتوجهة إلى الرُّوحانية، ومقامها الأصلي.

والمقصود من الشر هو الفطرة المحكومة بالطبيعة، والمحجوبة بأحكامها؛ وهو وزير الجهل، وجميع جنود الجهل تابعة له

ولعلّ الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[2]، إشارة إلى نور الفطرة الأصلي، الذي خمر بيد قدرة الحق تعالى، وهو أحسن تقويم، لأنه صور طبقًا للكمال المطلق، والجمال التام. والرد إلى أسفل سافلين إشارة إلى الاحتجاب بالطبيعة، التي هي أسفل سافلين.

وجميع الأحكام الإلهيّة تنقسم على مقصدين:

أحدهما: أصلي ومستقل، وهو توجيه الفطرة إلى الكمال المطلق الذي

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) التين: ٤ ـ ٥.

هو الحق جلّ وعلا، وشؤونه الذاتيّة، الصّفاتية والأفعالية، ويرتبط به، بواسطة أو بلا واسطة، أبحاث المبدأ، والمعاد، ومعاني الربوبيات، من الإيمان بالله، والكتب، والرسل، والملائكة، واليوم الآخر، وعمدة مراتب السُّلوك النّفساني، وكثير من فروع الأحكام، كفريضتي: الصلاة والحج.

والآخر: عَرَضي وتَبَعي، وهو تنفير الفطرة من الشجرة الدَّنيوية الخبيثة، والطّبيعة، التي هي أم النَّقائص والأمراض، ويرجع إليه كثير من مسائل الرُّبوبيّات، وعمدة الدّعوات القرآنية، والمواعظ الإلهيّة والنبويّة، ومواعظ الأئمة؛ وعمدة أبواب الرّياضة والسُّلوك؛ والكثير من الفروع الشَّرعية، كالصوم والصّدقات الواجبة، والمستحبة، والتّقوى، وترك الفواحش، والمعاصي.

وهذان المقصدان مطابقان لفطرة التوق إلى الكمال، وفطرة النُّفور من النَّقص، فجميع أحكام الشرائع مربوطة بالفطرة، من أجل تخليصها من حجب الطبيعة الظلمانية.

إن اختلاف الناس في البيئة، والعادات، وغيرها، الذي أوجد الاختلافات الكثيرة بينهم، إنّما أثر في البشر في تشخيص متعلق الفطرة، ومراتبها، لا في أصلها.

إن الفيلسوف العظيم الذي يعشق الفلسفة، ويصرف عمره كلّه في

فنونها، وأبوابها، وشعبها الكثيرة؛ على الرغم من ذلك الشأن العظيم، فهو في سعي دائم لتوسيع نطاقه؛ والتاجر الذي يعشق جمع الثَّروة، والمال، لا فرق بينهما في أصل التوق إلى الكمال، ولكن كلٌّ منهما يرى الكمال من منظوره الخاص. وهذا الاختلاف في التَّشخيص منهما سببه احتجاب فطرتهما، فكلٌّ منهما محجوب عن محبوبه المطلق بقدر كثافة حجابه؛ لأنَّ كلًّا من هذه الأمور محدود، وناقص، ومحبوب الفطرة مطلق وتام، ولهذا لا تنطفئ نار عشقهم بالوصول إلى متعلق هذا العشق.

كذلك عشق السلطة ليس محدودًا، لأنّ في ذات الإنسان غريزة عشق السلطة المطلقة، وهي تنفر، وتهرب من المحدودية، من دون أن يشعر بذلك.

فجميع الشُرور التي تصدر في هذا العالم عن الإنسان المسكين، سببها احتجاب الفطرة، التي تصبح شريرة بالعرض، لتعلقها بالحجب التي أحاطت بها؛ فأصبح شريرًا بعدما كان خيِّرًا، بل كان الخير نفسه.

فلو أزيلت هذه الحجب الظُّلمانيِّة، بل النُّورانيِّة، عن وجه الفطرة الشّريف، وخلّيت فطرة الله كما خمّرت بيد القدرة الإلهيِّة في روحانيتها، فعند ذلك يظهر فيه العشق للكمال المطلق بلا حجاب.

ولا بد من أن يعلم الإنسان بأنّه لو غفل عن نفسه، ولم يكن في صدد إصلاحها، وتزكيتها، بل أطلق عنانها، فهو يزيد في كلِّ يوم، بل في كلِّ

ساعة حجابًا على حجبها، ووراء كل حجاب حجاب، بل حجب، إلى أن ينطفِئ نور الفطرة كليًّا، ولا يبقى من المحبّة الإلهيّة أثر.

وهذا التَّزايد في الحجب له سبب طبيعي، وهـو أنّ القـوى الـثّلاث، وهي:

الأولى: قوّة الشّيطنة، ومن فروعها: العجب، والكبر، وطلب الرِّئاسة، والخداع، والمكر، والنّفاق، والكذب، وأمثالها.

والثانية: القوة الغضبيّة، ومن فروعها: التكبُّر، والتجبُّر، والافتخار، والتمرُّد، والقتل، والفحش، وإيذاء الخلق، وأمثالها.

والثالثة: القوّة الشهوية، ومن فروعها الحرص، والطمع، والبخل، وأمثالها.

هذه القوى الثلاث ليست محدودة بحد، بمعنى: إذا وقع لجام الإنسان بيد الشّيطان، فلن يتوقف عند حد، ولن يقنع بمرتبة؛ وهو مستعدّ لأن يخالف جميع النّواميس الإلهيَّة، من أجل الوصول إلى مقصده، كأن يقتل، وينهب، من أجل تحصيل رئاسة جزئيّة، أفواجًا من الأنبياء، والأولياء، والصُّلحاء، والعارفين بالله.

ومن المعلوم أنّ كلّ مرتبة من هذه اللّذات الإنسانية التي ترجع إلى القوى الثلاث إذا حصلت للإنسان، فسيتعلق قلبه بالدنيا بمقدارها، ويغفل عن الروحانية، والحق، والحقيقة.

فيا أيُّها المسكين، كم ستكون حسرتك يوم يرفع حجاب الطبيعة عن بصرك، وتعاين أن كل ما مشيت له في العالم، وسعيت فيه، كان في طريق مسكنتك، وشقاوتك، وقد انسد طريق العلاج، والجبران، وانقطعت يدك عن كل شيء، وليس لك الفرار من السلطة الإلهية القاهرة: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾[1]. ولا سبيل لجبران النقائص الماضية، والاعتذار عن المعاصي الإلهية ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾[2].

(١) الرحمن: ٣٣.

(٢) يونس: ٩١.

المقصد الثاني

الإيمان وضده الكفر

الإيمان غير العلم والإدراك؛ لأن العلم والإدراك حظ العقل، والإيمان حظ القلب، مثلًا: نحن نعلم بالبرهان، والإدراك العقلي، أن الأموات لا يضرّون الإنسان، وجميع الأموات في العالم لا يتحركون بمقدار ذبابة؛ ونعلم أن الأموات في الظلمة لا يجيبون، وعلى رغم هذا ففي الليلة الظلماء نخاف من الأموات؛ وهذا من جهة أن القلب لم يؤمن بتلك الحقيقة العقلية، ولم يصل الإدراك العقلي إليه، ولكن الذين أوصلوا هذا المطلب العلمي إلى القلب بتكرار العمل، وكثرة الإقدام في الليالي المظلمة على زيارة القبور، لا يخافون من الأموات، بل ينزلون في المقابر، ويستأنسون بهذا المكان الهادئ.

إن الإيمان بالمعارف الإلهية، وأصول العقائد الحقّة، لا يتحقق إلا بأن

يتوجه أولًا إلى تلك الحقائق بقدم التفكر، والرياضة العقلية، والآيات، والبينات، والبراهين العقلية؛ وهذه المرحلة هي بمنزلة مقدمة للإيمان، وفي هذا المقام تختلف مراتب الإيمان، ولعل هذا هو معنى الحديث الشريف: «**العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء**»[1]؛ لأن العلم بالله ما دام في حد العقل فهو نور، وبعد الرياضات القلبية يقذفه الله تعالى في القلوب المناسبة، فتؤمن به؛ مثلًا: كلنا نعلم أنه لا يمكن التصرف في مملكة الحق تعالى من دون إجازته القيومية، وإشارة الذات المقدسة الإشراقية، وأنه لا تقهر إرادة أحد إرادة الذات المقدسة القويمة، وعلى الرغم من ذلك فنحن نطلب الحاجات من أهل الدنيا وأرباب الثروة، والتمكن، ونغفل عن الحق تعالى، وتوكلنا على عالم الطبيعة بأوضاعه، وأموره، يفوق مئات المرات توكلنا على الحق تعالى.

ونحن نعلم أن القرآن الشريف نزل من معدن الوحي الإلهي، لتكميل البشر، وتخليص الإنسان من سجن الطبيعة الظلماني، ووعده، ووعيده كله حق صريح، وحقيقته ثابتة، وليس في كل مندرجاته شائبة خلاف الواقع، وعلى الرغم من ذلك، فهذا الكتاب الإلهي العظيم لا يؤثر في قلوبنا القاسية بمقدار ما يؤثره أيّ كتاب في القصة.

---

(١) مصباح الشريعة: ١٦

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١) إلى أن يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(٢) ذكرها على سبيل الحصر، بأن المؤمنين لهم هذه الأوصاف وغيرهم ليسوا بمؤمنين، وأخيرًا يقول: إن هؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون؛ ومن الأوصاف التي ذكرت لهم:

الأول: أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

والثاني: أنهم ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ زادت تلك الآيات إيمانهم؛ والآن أنتم المدّعين للإيمان الذين أدركتم جميع أركانه بالعقل، ووجدتم أو نسجتم لكلٍ منها برهانًا، ارجعوا إلى حالكم وانظروا: أيّ من هذه الخواص في قلوبكم؟ تذكرون الله، وتسمعون ذكره، فأين ذاك الخوف الذي هو علامة المؤمن؛ فالقلب الذي لم يدرك عظمة الحق تعالى وجلاله، ولم يدخل فيه كبرياؤه، وعلو شأنه، لا يخاف من ذكره.

والثالث: أنهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

إن حقيقة التوكل هي إيكال جميع الأمور إلى الوكيل، والاعتماد على وكالته، وصرف النظر عن سواه، وإغماض عين الرجاء عن غيره، وهذا مبنيّ على أربعة أمور، **وهي أركان التوكل**:

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) الأنفال ٤.

الأول: العلم بأن الوكيل يعلم حاجة الإنسان.

الثاني: العلم بأنه قادر على قضاء أي حاجة.

الثالث: العلم بأن ذو رحمة وشفقة على الموكل.

الرابع: أن البخل بعيد عن ساحته.

فهل حصلت في أنفسنا هذه العلوم الأربعة المتعلقة بذات الله تعالى المقدسة؟ فاعتمادنا على الناس، ورجاؤنا متوجه إلى الخلائق، أكثر منه إلى الخالق؛ إننا نطلب حاجاتنا من المخلوق الضعيف.

الإيمان مطابق للفطرة، والكفر خارج عنها

إن الكمال والجمال المطلقين، اللذين يعشقهما جميع البشر، هما الحق تعالى جل جلاله؛ ولما كانت حقيقة الولاية عند أهل المعرفة هي الفيض المنبسط المطلق الخارج من جميع مراتب الحدود والمظاهر، والمعبّر عنه بالوجود المطلق؛ فالفطرة متعلقة بتلك الحقيقة، وهي حقيقة الولاية، وهو حصول الفناء في الكمال المطلق. فحقيقة الولاية أيضًا من الفطر؛ ولهذا فسرت ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] في الروايات الشريفة مرة: بفطرة المعرفة، وثانية: بفطرة التوحيد، وثالثة: بفطرة الولاية، ورابعة: بالإسلام.

(١) الروم: ٣٠.

وإنّ حَجْب المحجوبين عن الفطرة الأصلية، هو من باب الاشتباه في التطبيق، ونتيجة هذا الحجب، التعلق بالدنيا، ومحبتها، والنفور من الموت؛ فهم يظنون أن الموت فناء، ولما كانت الفطرة منزجرة، نافرة من الفناء، وعاشقة للبقاء، فقد حصل النفور من الموت لدى المحجوبين، على الرغم من أن الفطرة الأصلية تعشق البقاء الأبدي، وهذا العشق متصل بالمعاد، وعالم ما بعد الموت، لأن الحياة الدنيوية زائلة، والفطرة نافرة منها. أما النشأة الثانية الغيبية، وهي النشأة الباقية، فتعشقها الفطرة؛ فالإيمان باليوم الآخر من الأمور الفطرية.

طريق تحصيل الإيمان

لابد للإنسان من تحصيل الإيمان، فهذا العالم عالم التغير والتبدل، إذ يمكن للإنسان أن يغير ملكاته، وأوصافه القلبية؛ فعليه أن يغتنم هذه الأيام المعدودة في هذا العالم، ويحصّل الإيمان بأية قيمة ممكنة، ويجعل القلب مأنوسًا به؛ **وهذا يتحقق بالخطوات الآتية:**

الأولى: إخلاص النية، لتحصيل المعارف والحقائق الإيمانية؛ لأنه إذا لم يكن في العمل إخلاص تدخلت يد التصرف الإبليسية؛ وتصرف النفس من جهة حبّها، والإعجاب بها، فيبعد الإنسان عن حقيقة التوحيد والمعرفة، وعن ساحة القرب الإلهي. لاحِظ حال إبليس، الذي كان عنده حب النفس، والإعجاب بها، فلم ينفعه علمه شيئًا ؛ ولم يهده

إلى طريق السعادة.

والميزان في الرياضات الحقة، أو الباطلة، بالمعنى العرفاني الدقيق هو الاتجاه إلى النفس وحبها، أو الاتجاه إلى الحق، وطلبه. إن صلاة أقيمت للشهوات الدنيوية، أو الأخروية، ليست بمعراج للمؤمن، ولا مقربة للمتقين[1]، بل هي صلاة تقرب الإنسان إلى الحور العين، وتبعده من ساحة القرب الإلهية. وإن علم التوحيد الذي يكون هدفه حب الظهور في محضر العوام، أو العلماء، عارٍ من النورانية، وبريء منها؛ وهو غذاء هيئ للنفس الأمارة على يد الشيطان، وهو نفسه يخرج الإنسان من التوحيد، ويقربه من الإشراك.

الثانية: التوبة من الذنوب، والمخالفات، توبة خالصة بشرائطها، وتأتي في باب التوبة. فاذا أخلى قلبه من القذارات، يتهيّأ لذكر الله وقراءة كتابه، قال تعالى:﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[2].

الثالثة: بعد أن يتهيّأ القلب لذكر الله، والقرآن الشريف، يلقّن آيات التوحيد، والأذكار الشريفة في التوحيد، والتنزيه، مع حضور قلب،

---

(١) اقتباس من كلام للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: (الصلاة قربان كل تقي). وسائل الشيعة ج٣، ص ٣٠ كتاب الصلاة باب ١٢ ح١ ـ ٢.

(٢) الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩

وحالة طهارة، بمعنى أنه يعدّ القلب طفلًا ليست له قدرة على الكلام، وهو يريد أن يجعله ناطقًا؛ فكما أنه يكرر الكلمة، ويلقيها على سمع الطفل كي يتعلمها، هكذا يلقّن القلب حكمة التوحيد بالطمأنينة، وحضور القلب، ويقرؤها على القلب حتى ينفتح سمعه؛ وأفضل وقت لذلك هو أواخر الليل، أو بين الطلوعين بعد فريضة الصبح؛، ففي ذلك الوقت، ومع الطهارة، يوجه القلب في وجهة القرآن، والذكر، ويقرأ عليه، على نحو التلقين، والتذكير، الآيات الإلهية الشريفة المشتملة على التذكر والتوحيد. فإذا قرأ مع حضور القلب الآيات الشريفة في آخر الحشر، من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وهي الآية (١٨)، إلى آخر السورة المشتملة على التذكر، ومحاسبة النفس، والمحتوية على مراتب التوحيد، والأسماء، والصفات في وقت فراغ النفس من المشاغل الدنيوية، في آخر الليل أو بين الطلوعين، يرجى ـ إن شاء الله ـ أن يصل إلى النتائج الحسنة. وهكذا في الأذكار الشريفة، فالذكر الشريف (لا إله إلا الله) هو أفضل الأذكار، وأجمعها.

ولابد من أن لا يغفل في كل حال عن نقصه وعجزه، ولا عن رحمة الحق وقدرته، ويمدّ يد الحاجة إلى الذات المقدسة، ويطلب منها المدد. ولو حاسب نفسه في الليل والنهار لدقائق، بحسب إقبال القلب، وتوجهه، أي بمقدار ما يكون القلب حاضرًا، لتحصيل نور الإيمان وطلبه، وتحسَّس

فيها آثار الإيمان، كان وصوله إلى النتيجة أسرع إن شاء الله.

ومن المعلوم أن هذه الأمور تدريجيَّة، تتحقق بطول الزمان، إنها إحدى اثنتين: السعادة الأبديّة، أو الشقاوة التي لا نهاية لها، ولا آخر؛ نعم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

أيها الإنسان القاسي القلب: فكر، وانظر، ما المرض الذي جعل قلبك أقسى من الحجر الصلب، ولا يقبل قرآن الله الذي نزل لنجاتك من العذاب والظلمات؟. نعم، إن حبائل الشيطان التي تجلت في نظرك في صورة الدنيا بأصفرها، وأحمرها، قد سدّت طريق سمعك، وبصرك، وجعلت قلبك منكوسًا. والآن فكر في الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2]، فانظر: هل علامات الذين خلقوا لجهنم، موجودة فيك؟ إن قلبًا حرم من نور التدبر والتفقه، وإرجاع ظاهر الدنيا إلى باطنها، لا فرق بينه وبين قطعة لحم تشكل القلب الحيواني.

---

(١) الحشر ٢١.

(٢) الأعراف ١٧٩.

إن الكعبة المقصودة هي الله تعالى، والإنسان طالب للحق، وهذا الطلب الإلهي، الذي هو من نور فطرة الله، ليس له غاية غير غاية الغايات، وهو لا يعرف طريقه، ويدور حول المقاصد الباطلة كالمجانين، ولا تنطفئ نار طلبه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

(١) الرعد٢٨.

المقصد الثالث

التصديق وضده الجحود

التصديق في هذا المقام: قبول الحق، والاعتقاد الجازم به، وهو من جنود العقل، وراجع إلى الفطرة المخمرة؛ والجحود إنكار الحق ورده، وعدم الخضوع له، وهو من جنود الجهل، ومربوط بالفطرة المحجوبة.

إن في كل مفطور فطرة الانتقال من أي نظام بديع إلى منظِّمه وصانعه، وفطرة التحسس عن مبدع أي صفة دقيقة وعجيبة، ولا يخطر بباله شك في أن هذه الصفة العجيبة تحتاج إلى الصانع؛ وعلى رغم ذلك يوجد في البشر ظالمون، جاهلون، ليس في قلوبهم خضوع لساحة العظمة، وقد غلب على قلوبهم القاسية غبار الشك والشبهة، وكدورة التردد، بنحو صاروا معه غافلين عن الأمور الفطرية، وغير خاضعين

للضروريات، والبديهيات العقلية: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[1]، وهذا ليس إلا بسبب اشتغال الإنسان بعالم الطبيعة، وخضوعه لسلطة الوهم، والشيطنة؛ ففقد نورانية الفطرة، وانقطعت علاقته بالحقائق، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2].

ولعلّ إحدى الطيبات الطاهرة التي أذهبها الكفار في حياتهم الدنيا، فتمتعوا بها، واستغرقوا في الشهوات، هي نور فطرة الله التي نزلت من حضرة القدس بالطهارة والنظافة، وكان هذا النور من موائد الإنسان السماوية، وقد افتقده بسبب التوجه إلى الدنيا والتمتع بها.

وبالإجمال: حيث لا بد بحكم البرهان من تناسب الغذاء والمتغذي، فالفطرة الأصلية التي لم تخرج من النورانية يلزمها تصديق الحق تعالى، والخضوع للحقيقة.

في إصلاح النفس من الجحود

الإصلاح يتحقق بالعلم النافع، والعمل الصالح.

أمّا العلم النافع: فهو التفكر في لطائف المصنوعات، ودقائق أسرار

---

(١) عبس: ١٧.

(٢) الأحقاف: ٣٤

الوجود، وهذا التفكر يفتح للمتوسطين أبوابًا من المعرفة، ولو كان للكاملين حجابًا؛ وهذه الحسنة القلبية للأبرار، سيئة للمقربين.

وطرق التفكر في لطائف الصنع كثيرة لا تعد، ولكن أكثرها قربًا هي النفس ومعرفتها، كذلك صنع البدن وأفعاله، فهي طريق إلى معرفة الله «من عرف نفسه، فقد عرف ربه».

لنتوجه إلى عملية الهضم في هذا المصنع العجيب الذي هو جسم الإنسان؛ انظر بعين التدبر والتأمل، وفكر كيف يمكن لمواد عالم الطبيعة في أي مصنع أن تصفّى، وتجزأ، وتطبخ، وتنضج، على نحو يشكل من هذه المادة الغذائية الواحدة المتشابهة الأجزاء، والمتوافقة الكيفية، عظمًا بتلك الصلابة، ويشكل في موضع آخر حجاب العين، أو شبكة العين، أو مخ الرأس والنخاع بتلك اللطافة، ويشكل في محل مركز الحسّ، وفي محل آخر مركز الحركة، بذلك النظام المرتب الدقيق!. فكيف تصدق أي فطرة طاهرة غير ملوثة، أو تفترض، أن هذا النظام بهذه الدقة، قد تحقق من دون منظِّم كامل، عالِم، محيط بجميع المصالح والمفاسد؟ لقد تحيّر علماء التشريح، والأعضاء لآلاف السنين، إذ صرفوا أعمارهم في تشريح أعضاء الإنسان بالدقة الكاملة، لكنهم إلى الآن، لم يصلوا إلى جميع الحقائق الدقائق. وعلى الرغم من الرقيّ العلمي لعالم اليوم، مازالت عقولهم ضعيفة، وعاجزة عن الوصول إلى المعرفة الكاملة.

وأمّا العمل الصالح، الذي ينفع لتبديل أحوال النفس الظلمانية وجحودها، بالنورانية، والتصديق، فعلى نوعين:

أحدهما: الأعمال القلبية، وهي أعمال تُرجع الفطرة إلى حالتها الأولية، وروحانيتها الفطرية، وعمدتها التوبة بشرائطها الباطنية والظاهرية، ثم الاشتغال بالتزكية وتطهير القلب وتصفيته وتخليصه من الحجب الطبيعية؛ وعمدتها حب الدنيا، وحب النفس، والإعجاب بها، والاستبداد بالرأي.

والآخر: الأعمال القالبية، وهي أعمال تذكر النفس بأحوالها، وتوقظها من النوم الثقيل، وسكر الطبيعة، وهو الاشتغال بالأذكار الواردة عن أهل بيت الوحي، والطهارة، بشرائطها، وعمدتها حضور القلب. هذا الاشتغال لتذكير النفس، وإيقاظها، في أوقات اشتغال النفس بالكثرات والدنيا أقل، كأواخر الليل، وبين الطلوعين. «قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: يا عيسى أذكرني في نفسك أذكرك في نفسي. واذكرني في ملئك أذكرك في ملأ خير من ملأ الآدميّن، يا عيسى ألِنْ لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أن سروري أن تبصبص إليّ، وكن في ذلك حيًا، ولا تكن ميتًا»[1].

ويناسب إحياء القلب ذكر الاسم المبارك (يا حي يا قيوم).

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣٦٤باب ذكر الله في السرّ ح٣.

وينقل عن بعض أهل الذكر والمعرفة أن السجدة في كل يوم وليلة، والإكثار من ذكر:﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] يفيد للترقيات الروحية، ونقل عن بعض سالكي طريق الآخرة أنه لما سمع من حضرة الأستاذ فائدة هذا العمل كان يسجد في اليوم والليلة سجدة، ويقول هذا الذكر الشريف ألف مرة. ونقل عن بعض آخر أنه يقول هذا الذكر ثلاثة آلاف مرة[2].

ونقل عن الإمام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين عليهما السلام: **أنه رأى صخرة خشنة، فوضع رأسه المبارك عليها، وسجد، وبكى**، وقال **ألف مرة: لا إله إلا الله حقًا حقًا. لا إله إلا الله تعبدًا ورقًا. لا إله إلا الله إيمانًا وتصديقًا**»[3].

والسجدات الطويلة لمولانا موسى بن جعفر عليه السلام معروفة[4]

وخليل الرحمن عليه السلام الذي كان في وجهة قلبه﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[5]، لما قال له جبرائيل الأمين عليه السلام: هل لك

(١) الأنبياء ٨٧.

(٢) المراقبات: للعارف الجليل الحاج ميرزا جواد ملكي التبريزي.

(٣) وسائل الشيعة: المجلد السادس، صفحة ٣٨٢، كتاب الصلاة باب ٢٣من أبواب السجود، المجلد ١٥.

(٤) تاريخ الإمام موسى بن جعفر،صفحة ١١٦، الحديث ٢٩.

(٥) الأنعام: لآية: ٧٩.

حاجة؟ قال: **أمّا إليك فلا؛ فلقد ألقوا حمل حاجاتهم إلى جناب الحبيب، وليس لهم حاجة سواه، وليس لعشاق الجمال مقصود غير القبلة الحقيقية.**

المقصد الرابع

الرجاء وضده القنوط

لمّا أدرك العقل بنور فطرته، أن الحق تعالى كامل، مطلق، لا يتطرق إلى ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، تحديد، وتقييد؛ لزم ذلك الإدراك الرجاء الكامل، بالحق تعالى، وبرحمته؛ لأن الفطرة تدعوه إلى الكامل المطلق، والرحمة الواسعة. وإذا احتجبت الفطرة عن نورانيتها الأصلية عن الله، وكمالاته الذاتية، والصفاتية، ورحمته الواسعة، قد تصل إلى حد اليأس من رحمة الله.

إنّ العقل بحسب فطرته الذاتية المخمورة ليس محتجبًا، ولو لم يتوجه إلى شجرة الطبيعة الخبيثة لما حجب عن الله تعالى. ولتجلّت في نفسه الأسماء الشريفة بصفائها الباطني بلا تحديد، أو تقييد، وهذا التجلّي يورث تعلق القلب، والأنس، والرّجاء.

الفرق بين الرجاء والغرور

الغرور من أكبر جنود إبليس، في حين الرجاء من جنود العقل الرحماني؛ ويمكن التمييز بينهما على النحو الآتي:

الأول: مبدأ الرجاء العلم بسعة الرحمة، والإيمان ببسط الفيض، والكمال، والأسماء، والصفات؛ ومبدأ الغرور التهاون بالأمر الإلهي، والجهل بعوالم الغيب، وصور الأفعال الغيبية

الثاني: معرفة سعة الرحمة الإلهية، وبسط نعمة الحق، تدعو إلى تزكية الأعمال، وتصفية الأخلاق، والجد في إطاعة أوامر المولى، وولي النعم، من دون الاتكال على الأعمال، وإنما على رحمة الذات المقدسة، وبسط فيضها؛ أما صاحب الغرور الواقع في مصيدة الشيطان والنفس الأمارة، فيتخلف عن كسب المعارف، وتحصيل الأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة؛ إنهم يذكرون الله بالتعظيم، والإجلال، ويعترفون برحمة الحق تعالى لأنفسهم، ولغيرهم، ولكنهم يتهاونون بأمور الآخرة، ويتكاسلون عنها، ويسمون عملهم الرجاء الواثق، ويصورونه بصورة الاتكال على عظمة الحق. إنهم في الأمور الدنيوية يشتغلون بكمال الحرص، والعجلة، لجمعها وتحصيلها، وكأن الله تعالى كبير في الآخرة، وما يرجع إليها من أمور، وليس له عظمة في الأمور الدنيوية. إنّ الذين لا يعملون، ويطلبون الرضا والنتيجة الحسنة هم المغرورون.

والذين يعملون، ويعتمدون، على عملهم، هم المعجبون الذين نسوا أنفسهم، وغفلوا عن الحق. والذين يعملون، ويحتقرون أنفسهم وأعمالهم، ويعتمدون على الحق، وسعة رحمته، هم أصحاب الرجاء، وعلامتهم أنهم في الدنيا أيضًا لا يعتمدون، ولا يتوكلون إلا على الحق تعالى، وأعينهم مغلقة عن سائر الموجودات، ومفتوحة على جمال الجميل، فعن الصادق عليه السلام، قال الراوي: «**قلت له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت. فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا ليسوا براجين. إن من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه**»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم ـ أعمارهم ـ في عبادتي، كانوا مقصرين، غير بالغين في عبادتهم كُنْهَ عبادتي، فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع الدرجات العُلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظَّن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومَنّي يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت**»[2].

---

(١) أصول الكافي ٢ / ٦٨، كتاب الايمان والكفر، باب: الخوف والرجاء، ح: ٥

(٢) أصول الكافي: المجلد الثاني، صفحة ٥٨، باب حسن الظن بالله، الحديث ١.

فتنبه أيها العزيز، واستيقظ من النوم الثقيل، واحذر الغرور الشيطاني فإن هذا الغرور يهلك الإنسان هلاكًا أبديًا، ويؤخره عن قافلة سالكي الطريق، ويحرمه من كسب المعارف الإلهية، التي هي قرة عين أهل الله.

واعلم أنه لا تؤثر مع الغرور المواعظ الإلهية، ودعوات الأنبياء، ومواعظ الأولياء، لأن الغرور يقلع جذورها كلها، وهذا من مصائد إبليس الكبيرة، وحبال النفس الدقيقة، إذ يغفلون الإنسان عن التفكر في نفسه، وأمراضه، ويوجبون النسيان، والغفلة، ويعجز الأطباء النفسانيون عن علاجه، فينتبه في وقت اليأس من الإصلاح، وانسداد طريق العلاج بالكامل؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

الفرق بين الخوف والقنوط

مبادئ الخوف من الحق تعالى، واليأس والقنوط من رحمته، مختلفة، وآثارها وثمراتها أيضًا متفاوتة، ومتمايزة، لأن الخوف مما يأتي:

الأول: من تجلّي جلال الحق، وعظمته، وكبريائه جل جلاله.

الثاني: من التفكر في شدة بأس الله، ودقة حسابه، والوعيد بالعذاب والعقاب.

---

(١) مريم: ٣٩.

الثالث: من رؤية نقصان النفس وتقصيرها في القيام بالأمر.

ولا تنافي هذه الأمور الرجاء، ونتيجته شدة القيام بالأمر، وكمال المواظبة على الإطاعة؛ غاية الأمر:

أولا: أنّ من دعاه إلى العمل رؤية الجلال، وعظمة الحق جل وعلا، كانت غاية عمله تعظيم العظيم، وإجلال الجليل، ولسان حاله يقول: «وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك».

ثانيا: ومن كان يدفعه خوف العقاب، والبأس، والحساب، كانت غاية عمله الخلاص منها، والوصول إلى مقابلاتها.

ثالثا: ومن كان يدفعه رؤية النقص، والقصور في نفسه، كانت غايته دفع النقص بالقدر الميسور، والوصول إلى الكمال بالمقدار المقدور.

أمّا القنوط واليأس من رحمة الحق فيرجع إلى تحديد الرحمة الإلهية، وقصور غفران الله، وعفوه عن الشمول، وهذا القنوط من أكبر الكبائر، بل هو إلحاد بالأسماء الإلهية، وباطنه كفر بالله العظيم، وجهل بمقامه المقدس، وبأسمائه تعالى، وصفاته، وأفعاله؛ ونتيجة هذا اليأس التوقف عن العمل، وانقطاع حبل العبودية.

ومن مصائد إبليس الكبيرة أنه في البداية يجر العبد إلى الغرور، والمعاصي، بزعم رجاء الرحمة، وفي آخر الأمر إذا رأى فيه نورانية، وظن فيه التوبة والرجوع، يجره إلى اليأس من الرحمة والقنوط، ويقول له: قد قضي أمرك، ولم يعد يقبل الإصلاح.

فلا بد للإنسان من التصدي لعلاج هذه الكبيرة المهلكة، فيتفكّر في رحمة الله الواسعة، والألطاف الخفية، والجلية، لذاته المقدسة؛ فالله تبارك وتعالى قد أجرى للإنسان اللطف، والرحمة الخاصة، فضلا عن الرحمة التي يشارك فيها سائر الحيوانات. الإنسان قبل أن يولد هيّأ الله سبحانه وتعالى له غذاء، هو الأنسب له في ذلك الوقت، وخص الإنسان بأن جعل محبته في قلب أبويه أكثر منها عند جميع الحيوانات؛ بمعنى: أنهما يفوقان سائر الحيوانات في حبهما لأولادهما، ويجدّان في التحصيل، والكسب، والحرص، والتربية، أكثر، وبفضل هذه العلاقة، والمحبة الكثيرة، يخدمان الأولاد من صميم القلب، من دون منة، أو طمع بأجر.

وأعظم جميع النعم، وأكمل من كل الرحمات، نعمة التربية المعنوية، وهي مخصوصة بالإنسان، من قبيل إرسال الكتب السماوية، والأنبياء المرسلين عليهم السلام، ما يؤمن له السعادة الأبدية، والراحة الدائمة، ويهديه إلى طريق السعادة الدائمة، والكمالات الإنسانية، فبأي سابقة خدمة وثواب، وبأجرة أي عبادة أو طاعة، أعطيت هذه النعم والرحمات؟ .. عميت عين وقلب يجدان هذه النعم، ويريانها، ثم يتطرق اليأس إليهما، ويُفقَد الرجاء.

أيها الإنسان المسكين، إن جهنم، والعذاب المختلف في عالم الملكوت، والقيامة، هي صور أعمالك وأخلاقك. بيدك قدمت لنفسك هذه الذلة

والمسكنة، وما زلت تسعى إلى جهنم برجلك، وتهيؤها بعملك، فليست جهنم إلا باطن أعمالك غير المرضية؛ والظلمات والوحشة في عالم البرزخ، والقبر، والقيامة، ليست إلا ظلًا ظلمانيًا لأخلاق الإنسان الفاسدة، وعقائده الباطلة، فلو لم تكن أعمال الإنسان القبيحة، لما كانت جهنم، ولكان كل عالم الغيب بردًا وسلامًا.

وإن باطن جهنَّم صورة اللطف والرحمة الإلهيين؛ فهي العلاج الوحيد لتخليص المؤمنين العاصين، وإيصالهم إلى السعادة الأبدية، لأن فطرة الإنسان المخمرة الصافية كالذهب، الذي أصبح مغشوشًا، ومخلوطًا بالنحاس، لا بدّ من أن يذيبها بالنار، ويخلصها من الغل والغش. إنّ جهنم للذين لم تحجب فطرتهم كاملًا، ولم تصل إلى الكفر، هي رحمة في صورة الغضب.

الجمع بين الخوف والرجاء

لابد للإنسان من أن يجمع دائمًا بين نظرين:

الأول: النظر إلى نقص نفسه، وقصورها، وفقرها، وفاقتها، وبهذه الرؤية يحصل الخوف في العبادات، والإطاعات أيضًا، فكيف بالخطايا والمعاصي، بل إن أكثر عباداتنا عند أرباب المعرفة هي من أجل المنافع الذاتية، فهي عبادة للنفس، وإعمال للشهوة؛ فتحصل منها الكدورة والظلمة، وبهذا النظر يحصل الخوف.

الثاني: النظر إلى بسط رحمة الحق، وسعة نور الرحمانية والرحيمية، والنعم الواسعة غير المتناهية، والكرامات الدائمية، وبهذا النظر يحصل الرجاء.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال الراوي:« قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: **كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك**. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبي يقول: **إنه ليس من عبد مؤمن إلاّ وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا**»[1].

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة: «أدعوك راهبًا، راغبًا، راجيًا، خائفًا؛ إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت. فإن عفوت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم»[2].

---

(١) أصول الكافي ج٢ص٥٥باب الخوف والرجاءح١.

(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، شيخ الطائفة الطوسي ص ٥٢٦ دعاء أبي حمزة الثمالي.

المقصد الخامس

العدل وضده الجور

العدالة هي الحد الوسط بين الإفراط والتفريط، وهي من الفضائل الإنسانية الكبيرة، بل عن الفيلسوف عظيم الشأن أرسطو طاليس: «إن العدالة ليست جزءًا من الفضيلة، بل هي كل الفضائل، والجور ـ على العكس ـ ليس جزءًا من الرذيلة، بل هو كل الرذائل»؛ وعليه فهي: تعديل جميع القوى الباطنية، والظاهرية، والروحية، والنفسية.

يلازم الإنسان من أوّل نشأته الطبيعية بعد القوة العاقلة، ثلاث قوى:

الأولى: القوة الواهمة: وتسمى بالقوة الشيطانية، وهذه القوة موجودة في الطفل منذ البداية، وبها يكذب ويخدع، ويمكر، ويحتال.

الثانية: القوة الغضبية: وتسمى بالنفس المفترسة، وهي لدفع المضار، ورفع الموانع.

الثالثة: القوة الشهوية: وتسمى بالنفس البهيمية، وهي مبدأ الشهوات، وجلب المنافع والملذات في المأكل، والمشرب، والمنكح.

وهذه القوى الثلاث يمكن أن تصل كل منها إلى حدّ الكمال، فلا تغلب إحداها الأخرى، وقد تغلب إحداها الأخريين، ويمكن أن تغلب اثنتان ثالثتهما.

فإذا كانت النفس البهيمية غالبة تمثل الإنسان في الصورة الملكوتية الغيبية الأخروية على صورة إحدى البهائم المناسبة له كالبقرة، والحمار وأمثالهما.

وإذا كانت النفس السبعية غالبة، كانت الصورة الغيبية الملكوتية على شكل أحد السباع كالنمر، والذئب، وأمثالهما.

وإذا غلبت القوة الشيطانية على سائر القوى، كان الباطن الملكوتي على صورة أحد الشياطين، وهذا أصل أصول المسخ الملكوتي.

ويحصل من ازدواج كل اثنتين صور متعددة، ومن اجتماع الثلاث تحصل صورة ممزوجة مختلطة، نحو: بقرة، شيطان، نمر؛ وعلى هذا المعنى يحمل الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير**»[1].

إن طرفي الإفراط والتفريط في هذه القوى الثلاث مفسد لمقام

---

(١) علم اليقين: ج٢ص ٩٠١.

الإنسانية، إذ يخرج الإنسان تارة من الحقيقة الإنسانية، وتارة من الفضيلة الإنسانية.

وإذا كان التفريط والقصور خَلْقيًا، من دون اختيار صاحبه، فالنقصان في أصل الخلقة، ويمكن أن يُغيّر بالرياضات والمجاهدات، والأعمال القلبية، والقالبية، وقلما تكون صفة من صفات النفس (طبيعية) بمعنى غير قابلة للتغير.

إذا مثّلنا العدالة تمثيلًا حسّيًا كانت خطًّا مستقيمًا واصلًا بين نقطة العبودية، ومقام قرب الربوبية؛ وهي طريق سير الإنسان الكامل من نقطة النقص العبودية، إلى كمال العزة الربوبية، والصراط المستقيم الذي يطلبه الإنسان في الصلاة هو هذا السير الاعتدالي، وما ورد في الأحاديث الشريفة أن الصراط: «أدق من الشعر، وأحدّ من السيف» هو من جهة أن حدّ الاعتدال له الوسطية الحقيقية.

في تحصيل فضيلة العدالة

ما دام الإنسان في عالم الطبيعة فهو يستطيع أن يعدل قواه النفسية، ويلجم النفس المستنفرة بلجام العقل والشرع، وهذا الأمر في أول الشباب سهل وميسور جدًا لأن نور الفطرة لم يقهر بعد، ولم تفقد النفس صفاءها، ولم تترسخ بعد لا الأخلاق الفاضلة، ولا الصفات المذمومة في النفس، ونفس الطفل كصفحة قرطاس بلا نقش ولا صورة، فهو يتقبل

كل نقش بسهولة ويسر، وإذا قبلها فزوالها ليس بميسور؛ ولذلك، كانت تربية الأطفال وتهذيبهم، من المهمات التي تعهد إلى الأبوين؛ وتبدأ باختيار الزوجة الصالحة، واختيار الأغذية المناسبة، والمحللة قبل زمان الحمل، وفي أيامه والإرضاع، وأمثالها.

وبعد هذه المرحلة تأتي التربية الخارجية من المعلمين والمربين غير الأبوين، والصحة، والفساد في هذه المرحلة متعلق في ذمة الأب، فانتخاب المعلم الصالح له دخل تامٌ، وكامل، في التربية الأولى للطفل؛ فربما في هذه المرحلة ترسم خريطة الشقاوة، والسعادة للطفل، والدواء المعطى من المعلمين هو إما شفاء للأمراض، أو سم قاتل، ومسؤوليته على الأب.

وإذا جاوز هذه المرحلة يحصل الرشد، والبلوغ بالتدريج، ويأتي استقلال الفكر، والنظر في أيام الشباب؛ والإنسان في هذه المرحلة هو بنفسه كفيل سعادته، وضامن شقاوته؛ وكلما كان أقرب إلى أيام الشباب، كان تحصيل السعادة أيسر وأسهل، واستقرارها أكثر؛ لأن صحيفة النفس تكون خالية من النقوش، وأقرب إلى البساطة.

إنّ على الشباب حتمًا ولازمًا، أن يكونوا في صدد التصفية، والتزكية، ما دامت فرصة الشباب حاضرة، والصفاء الباطني، والفطرة الأصلية باقيين على حالهما؛. فيقلعون جذور الأخلاق الفاسدة، والصفات المظلمة من قلوبهم، لأنه بوجود خلق واحد سيء، تكون سعادة الإنسان

في خطر عظيم، وفي أيام الشباب تكون الإرادة قوية، والتصميم محكمًا، وعلى هذا يكون الإصلاح أسهل؛ وفي مرحلة الشيب تكون الإرادة ضعيفة، والتصميم هرمًا، فيكون التغلب على القوى أصعب.

وعلى الكهول أيضًا ألاّ يغفلوا عن إصلاح أنفسهم وتزكيتها، ولا ييأسوا منها؛ لأنه مادام الإنسان في هذا العالم، وهو دار التبدل، والتغير، فهو يستطيع أن يصلح نفسه، ولو بتعب كثير، والأمراض النفسانية المزمنة حتى إذا بلغت درجة كبيرة من الاستحكام، فمع ذلك يمكن قلع مادتها، وليس منها مرض لا يمكن إصلاحه، ما دام الإنسان في هذا العالم، ولو ترسخ واستحكم في النفس، وصار ملكة لها؛ غاية الأمر اختلاف في شدة الرياضات النفسانية، وكثرتها.

أمّا بعد خروج الروح من البدن، بل قبل ذلك في حال الاحتضار، فيُسلَب الإنسان الاختيار، وتُجرَى له طرق أخرى لتخليصه كالضغطات، والوحشة لرؤية الملائكة الموكلين بقبض روحه، وهم مأمورون للحق تعالى، غلاظ وشداد؛ وكالظلمة وضغطة القبر، والعذابات المختلفة فيه، وهي من العوالم الغيبية؛ **فعن الرسول**صلى الله عليه وآله **أنه قال: «القبر من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»**[1]، **وعن الصادق**عليه السلام **أنه قال: «يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينًا، لو**

(١) بحار الأنوار: ج٦ص٢٠٥ كتاب العدل والمعاد باب ٨.

أن تنينًا منها نفخ في الأرض لم تنبت زرعًا»[١].

وأهل المعرفة يقولون: إن المؤذيات التي تتسلط على الإنسان في القبر هي ظهور ملكوت الأخلاق الذميمة، التي تؤذي الإنسان في هذا العالم أيضا، ولكن كون النفس في غلاف الطبيعة يجعلها غافلة عن ملكوتها؛ وهي من هذه الجهة غافلة عن المؤذيات التي في باطنها، فاذا تبدلت نشأة الملك بملكوت عالم القبر والبرزخ، رأى الإنسان نفسه مبتلاة بأنواع البلايا، وأحاطت به أنواع الظلمات والكدورات، والوحشات، فإن زالت الكدورات النفسانية بهذه الضغطات، والعذاب في القبر، سيصل في القيامة إلى المقام الكريم الموعود له في ظل عنايات الشافعين عليهم السلام، أما إذا بقيت جذور الأخلاق الفاسدة والظلمات، فسيقع الإنسان في أهوال يوم القيامة.

وإذا لم يغلب نور الفطرة في هذه المواقف الموحشة، فسينتهي الأمر إلى جهنم، فيحبس في أنواع العذاب حتى تطهر النفس، والفطرة، من الغل والغش: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٢]؛ وتختلف كيفية هذا النزع عند الأشخاص تبعًا لاختلاف كمال ملكاتهم أو نقصها.

---

(١) بحار الأنوار: مجلد ٦. صفحة ٢١٨. كتاب العدل والمعاد، الباب الثامن الحديث ١٣.

(٢) الحجر ٤٧.

المقصد السادس

الرضا وضده السخط

الرضا: سرور العبد من الحق تعالى شأنه، وإرادته، ومقدراته؛ ولازم هذا السرور السرور من الخلق أيضًا، وحصول الفرح العام؛ والمرتبة العليا منه هي من أعلى مراتب الكمال الإنساني، وأعظم مقامات أهل الجذبة، والمحبة، وهو فوق مقام التسليم، ودون مقام الفناء.

قال الشيخ الرئيس في الإشارات عند بيانه مقامات العارفين: «العارف هشٌّ، بشٌّ، بسام، يبجل الصغير من تواضعه، كما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل، مثلما ينبسط من النبيه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق، وبكل شيء؟! فإنه يرى فيه الحق. وكيف لا يستوي والجميع عنده سواسية»[1]؛ ويقول المحقق الطوسي أيضًا: «وهذان الوصفان، أعني

---

(١) شرح الإشارات والتنبيهات للمحقق الطوسي، المجلد ٣، صفحة ٣٩١.

الهشاشة العامة وتسوية الخلق في النظر أثران لخلق واحد يسمى بالرضا»[١].

ولما كان الإنسان عاشقًا للحق تعالى بالفطرة، وهو كمال مطلق، فإنه يشاهد أفعال الحق تعالى جميلة، وكاملة، ويرى أنه: لا يأتي من الجميل المطلق إلا مطلق الجميل؛ فيمجده بعين العيان، والمشاهدة الحضورية. فالعشق والرضا اللذان يشعر بهما الإنسان تجاه الذات المقدسة، يجدهما في جميع أنظمة الوجود من جهة لزومهما للكمال المطلق.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**رأس طاعة الله، الصبر، والرضا عن الله فيما أحب العبد أو كره، ولا يرضى عبد عن الله فيما أحب أو كره إلا كان خيرًا له فيما أحب أو كره**»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله تعالى**»[٣].

أمّا صاحب الفطرة المحجوبة، الذي شخص الكمال في أمور أخرى، فرضاه وسروره وفرحه، وتعلقه هو بتلك الأمور، وهو بمقدار احتجابه عن الحق تعالى، ساخط، وغير راض عنه، وعن أفعاله، وحيث إن محبوبه الدنيا، وأمانيّ النفس الداثرة، فلورود أيّ خلل فيها، يسخط بحسب

---

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٢) أصول الكافي: ج٢، صفحة ٤٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء الحديث ١.

(٣) المصدر نفسه، الباب نفسه، ح٢.

الجبلة، والفطرة ممن أورد الخلل عليها، ويسوء ظنه به، وإن لم يتكلم بذلك.

مراتب الرضا

للرضا مراتب متكثرة، منها:

الدرجة الأولى: الرضا بالله ربًّا، أي أن يكون راضيًا عن التربية الإلهية بعد الدخول تحت ربوبية الله، وعلامة هذا الرضا، فضلا عن عدم شعوره بمشقة التكليف، أن يكون راضيًا بالأوامر الإلهية ومسرورًا بها، فيستقبلها بروحه وقلبه، ومبغضا للمنهيات الشرعية.

وهكذا فالقول: «**رضيت بالإسلام دينًا، وبمحمدٍ**ﷺ **نبيًا ورسولًا، وبالقرآن كتابًا، وبعلي أمير المؤمنين، وأولاده المعصومين**عليهم السلام **أئمةً**»،[1] مجرد ادعاء، فإذا لم يكن مشفوعًا بالواقع كان نفاقًا وكذبًا. فالرضا عن النبوة والإمامة يتجسد بالعمل للوصول إلى السعادة، التي هدونا إليها، وإلا كان باطن ادعاء هذا الرضا هو الاستهزاء.

الدرجة الثانية: الرضا بقضاء الحق تعالى وقدره. أي الرضا عن كل الوقائع التي تحدث حلوها ومرها، فعن باقر العلوم عليه السلام في سن الطفولة: «أنه سأل جابر بن عبد الله الأنصاري: **كيف تجد حالك؟** قال: أنا في حال، الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب إلي من الصحة، والموت

(١) اقتباس ممّا في أصول الكافي، المجلد ٢، صفحة ٣٩٨، كتاب الدعاء، باب ٥٢، الحديث ٦.

أحب إليّ من الحياة، فقال الإمام عليه السلام: **أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقر، والغنى، والمرض، والصحة، والموت، والحياة، فهو أحب إلينا**»[١].

ولا يحصل هذا المقام إلا بمعرفة مقام رأفة الحق تعالى بالعبد، ورحمته له، والإيمان بأن كل ما أعطاه الحق تعالى في هذا العالم هو لتربية العباد، وحصول كمالاتهم النفسانية.

فربما يصل الإنسان بالفقر والمسكنة إلى مقام كماله الذاتي، وربما بالمرض، والعجز يصل إلى السعادات الأبدية.

الدرجة الثالثة: الرضا برضا الله[٢]، وهو أن لا يكون رضا العبد نابعًا من نفسه، بل يكون رضاه تابعًا لرضا الحق تعالى، كما أن إرادته تابعة لإرادة الله. كما روي في الحديث الشريف: «**رضا الله رضانا أهل البيت**»[٣].

وإن كان يمكن أن يكون الرضا إشارة إلى مقام أعلى وهو عبارة عن قرب الفرائض وهو البقاء بعد الفناء.

---

(١) جامع السعادات: المجلد ٣، صفحة ٢٨٥.

(٢) يرجع إلى شرح منازل السائرين للمولى عبد الرزاق الكاشاني، صفحة ٢٠٩.

(٣) بحار الانوار: المجلد ٤٤، صفحة ٣٦٧، تاريخ الحسين عليه السلام الباب ٣٧، الحديث٢.

مبادئ مقام الرضا

مقام الرضا من آثار المعارف الإلهية وشؤونها، ومبدؤه من الحق تعالى هو معرفة العبد بأن أفعاله تعالى جميلة، ومراتب معرفة العبد بمقام جمال الحق ذاتًا وصفة وفعلًا، هي:

المرتبة الأولى: العلم بأن الحق تعالى جميل ذاتًا، وصفة، وفعلًا، بالبرهان العلمي الحِكَمي، ولو وصل أحد إلى مقامات العرفان العالية من غير هذا الطريق فهو من النوادر، إلا أن التوقف في هذه المرتبة يُعد من الحجب الكبيرة، والغليظة إذ قيل في حقها: العلم هو الحجاب الأكبر.

المرتبة الثانية: أن يوصل جمال الحق تعالى، وجمال أوصافه، وأفعاله إلى القلب، حتى يؤمن بأن الحق تعالى جميل؛ وهذا يحصل بشدة التفكُّر بالنعم الإلهية، وإخضاع القلب لآثار جماله، حتى يقبل صفة جمال الحق تعالى بالتدريج، وهذا مقام الإيمان، نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**الإيمان أربعة أركان: الرضا بقضاء الله، والتوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والتسليم لأمر الله**».

المرتبة الثالثة: أن يصل العبد السالك إلى درجة الاطمئنان، والاطمئنان كمال الرضا، ولعل الآية المباركة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1] تشير إلى هذا المعنى.

---

(١) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

المرتبة الرابعة: مقام المشاهدة، وهو مقام أهل المعرفة، وأولي الألباب الذين صرفوا قلوبهم عن عالم الكثرة، والظلمة، وكنسوا بيت القلب من غبار التوجه إلى غير الله تعالى، ونفضوا عنه غبار الكثرة، فتجلى الحق تعالى في قلوبهم بتجليات تناسب مدى صفائها.

ابتلاء المؤمنين

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل**»[1].

إن الله تبارك وتعالى يبتلي أولياءه ومؤمنيه، في دار الدنيا، لمحبته لهم وعنايته بهم، والسر في ذلك، أنهم لو وضعوا في الدلال والنعمة لركنوا إلى لذات الدنيا وشهواتها، ولأثرت في ملكوت قلوبهم، ولزاد تعلقهم بها، وحبهم لها، ولنفروا قهرًا عن الحق تعالى، ودار كرامته، وعن ملكوت أنفسهم، وإصلاح أمراضها، ولتأخروا عن اكتساب الفضائل النفسانية.

ولعلّ لهذه النكتة قال جابر بن عبد الله رحمه الله للإمام الباقر عليه السلام: «أنا في حال: الفقر أحب إليّ من الغنى، والمرض أحب إليّ من الصحة» لأنه لم يكن مطمئنًا من نفسه أن يحفظها كما يشاء في الرفاه والسلامة، ولم يكن

(١) أصول الكافي ج٢ص١٩٦، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن ح١.

مطمئنًا من طغيان نفسه، ولكن الباقر عليه السلام لما كان مقامه فوق عقول البشر، أظهر مقام الرضا بما يناسب أفق جابر، وعلمه، وتأهيله في السلوك إلى الله، وأبرز جذبة من المحبة الإلهية، وقال: «**أما نحن** ـ أهل البيت ـ **فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة فهو أحب إلينا**»؛ نعم، إن أولياء الله يرون البليّات تحفة سماوية، والشدّة والضّيق عنايات ربّانية؛ فهم يأنسون بالله تعالى، ولا يطلبون غيره، ويتوجهون إلى الذات المقدسة، ولا يرون غيرها، وإذا طلبوا دار كرامة الحق تعالى فذلك من جهة أنها منه تعالى لا من جهة الحظوظ النفسانية.

المقصد السابع
الشكر وضده الكفران

الشكر: تقدير نعم المنعم، وهذا المعنى يظهر في القلب على طور، وفي اللسان على طور، وفي الجوارح على طور آخر؛ وهذا التقدير متقوم بمعرفة المنعم، ونعمته؛ **قال رسول الله**صلى الله عليه وآله: «**الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمُعطَى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع**»[1].

مراتب الشكر

تختلف مراتب الشكر بحسب مراتب معرفة المنعم، ومعرفة النعم، وبحسب اختلاف مراتب الكمال الإنساني، فهناك فرق كبير بين من

---

(١) أصول الكافي: المجلد ٢، صفحة ٧٧، باب الشكر الحديث ١.

يكون في حدود الحيوانيَّة، ولا يعرف شيئًا غير النعم الحيوانيَّة، من المأكول، والملبوس، والمنكوح، فلم يتطرق مطلقًا إلى العوالم الغيبية المجردة، وبين من خرج من هذا الحجاب، ودخل في المنازل الأخرى، وحصل في قلبه تجلٍّ من عالم الغيب.

وهناك فرق كبير بين من ينظر نظرة استقلالية إلى الأسباب الظاهرية والباطنية، وإلى الأسباب والمسببات والوسائط، وبين الذين لهم علم بالروابط بين الحق، والخلق، ويرجعون بدء مراتب الوجود وختامها إلى الحق تعالى، ويرون بنورانية قلوبهم تجلي مسبب الأسباب من وراء الحجب والأستار النورانية والظلمانية.

ومقام الشكر ـ كغيره من مقامات السلوك ـ تشترك في أوائله العامة، والخاصة، أو تختص به العامة، وفي أواخره تختص به الخاصة، وليس لغيرها فيه نصيب؛ وهو من الفِطَر التي أثبتها الحق تعالى بقلم قدرته في جميع البشر، فهم فيها مشتركون، هي تعظيم المنعم والثناء عليه.

إن الفطرة السليمة التي لم تحتجب بأستار المظاهر الخلقية، وترد الأمانة إلى صاحبها كما هي، تشكر الحق في كل نعمة؛ بل عند الفطرة غير المحجوبة كل شكر من أي شاكر، وكل حمد وثناء من أي حامد ومثنٍ، تحت أي عنوان، ولأي شخص كان في أية نعمة كانت، لا يرجع إلى غير ذات الله المقدسة، جلّ وعلا، وإن كان المحجوبون يظنون أنهم يمدحون

غيره، ويثنون على غيره، ومن هذه الجهة يمكن القول بأن غاية بعثة الأنبياء رفع هذا الحجاب، وطي الأستار التي تحجب تجلي جمال الأزلي جلت عظمته، ولعل الآية الشريفة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] وأمثالها إشارة إلى هذه اللطيفة، لكن الإنسان المسكين المحجوب الذي ستر فطرته الإلهية السليمة وراء حجب المظاهر الخلقية المظلمة، وأطفأ النور الموهوب من الله حين فطره بظلمات الكثرات الخلقية وطمسه، يكفر النعم الإلهية، وينسب كل نعمة إلى موجود ويكون توجهه في رجائه دائمًا إلى أهل الدنيا، ويد طمعه ممدودة إلى فقراء مثله.

نعم إن شكر المخلوق من الوظائف الحتمية كما قالوا: «**من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق**»[2]؛ لكن من جهة أن الله سبحانه هو الذي قرر وسائل بسط النعمة والرحمة، لا أنها بشكرها تحجب الخالق والرازق الحقيقي؛ لأن هذا عين كفران النعمة لولي النعم.

وبالجملة فلقد علم أن الشكر من لوازم الفطرة المخمرة، والكفران من احتجاب الفطرة ومن جنود إبليس والجهل.

---

(١) الإسراء ٤٤.

(٢) هذه العبارة بهذا اللفظ لم توجد في أي من جوامع الحديث، ولكن شبهها موجود فإنه نقل عن رسول الله ﷺ «**من لم يشكر الناس لا يشكر الله**»، كنزالعمال، المجلد ٣، الحديث ٦٤٤٣.

المقصد الثامن

الطمع وضده اليأس

الطمع: رجاء من دون رؤية العمل، وهو موافق لمقتضيات الفطرة، لأن ترك رؤية العمل، والتوجه إلى سعة الرحمة، هو فطرة عشق الكمال، والتنفر من النقص؛ وهو من مقامات العارفين بالله الذين تركوا أنفسهم، وعملهم، وهاجروا من منزل وجودهم، وبيت أنانيتهم، وتحرروا من النشأتين، وفتحوا عيونهم على الحبيب، وهم عميٌ عن أنفسهم وأعمالهم، ومع هذا أحيا قلوبهم تجلي رحمة الحق تعالى فيها، فيد طمعهم إليه ممدودة، وبه موصولة، وعن غيره مقطوعة.

واليأس الذي يقابل الطمع أعم من القنوط، لأن مقابل الأخص هو الأعم، وهو اليأس من الرحمة، أعم من أن لا يكون من أهل الطاعة، أو كان منهم لكن أعجب بطاعته، ورجا بعمله.

أو أن يكون المراد من الطمع: رجاء مغفرة المعاصي، أو غفران مطلق

النقائص، قال تبارك وتعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[1]، والرجاء: رجاء ثواب الله، والنظر إلى رحمته الواسعة.

تأثير الطمع واليأس

في نهج البلاغة: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾[3]، قال: «**هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي؛ ألا ترى أنه قد جعل الله شريكًا في ملكه يرزقه، ويدفع عنه**؟ قلت: فيقول ماذا؟ يقول: لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت؟ قال: **نعم، لا بأس بهذا أو نحوه**»[4].

إن تعلق القلب بالمخلوق، والغفلة عن الحق جل جلاله، من الحجب الغليظة التي تخمد نور المعرفة، وتكدر القلب، وتظلمه، وهذا من أكبر مصائد إبليس الشقي، ومكائد النفس العظيمة التي تبعد الإنسان عن ساحة الحق المقدسة، وتحجره عن المعارف الحقة.

---

(١) الشعراء: ٨٢.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٢٠.

(٣) يوسف: ١٠٦.

(٤) وسائل الشيعة: ج١٥ص ٢١٥، باب ١٢ح٢ وعدة الداعي، ابن فهد الحلّي، ص٨٩.

المقصد التاسع

التوكل وضده الحرص

التوكل: إيكال الأمر إلى معتمد إذ يرى نفسه عاجزة عن ذلك الأمر.

وقال بعضهم: التوكل على الله: انقطاع العبد إليه في جميع ما يأمله من المخلوقين.

والتوكل من جنود العقل، ومن لوازم الفطرة المخمرة؛ والحرص من جنود الجهل، وجنود إبليس، ومن لوازم الفطرة المحجوبة؛ فلو سأل شخص كل الموجودات: أيتها السلسلة غير المتناهية من البشر، والحيوانات، والنبات، والجن، والملائكة، هل أنتم محتاجون إلى موجود؟، فكل آحاد تلك السلاسل يجيبون بلسان واحد فطري: كلنا محتاجون إلى موجود لا يكون محتاجًا ومفتقرًا مثلنا؛ ومن لوازم تلك الفطرة: الرجاء، والخوف، والتوكل، والتسليم، والثقة، وأمثالها.

أما الإنسان المتحجب عن الحق تعالى، والمتوجه إلى الأسباب العادية، فيتشبث بها عملًا وقلبًا، وينقطع عن الحق سبحانه، فترتفع الطمأنينة، والوثوق من النفس، ويحل مكانها الاضطراب والتزلزل، وذلك هو الحريص.

أركان التوكل

لا يحصل التوكل إلا بعد الإيمان بأربعة أمور، وهي بمنزلة أركان التوكل:

الأول: الإيمان بأن الوكيل عالم بما يحتاج إليه الموكل.

الثاني: الإيمان بأن الوكيل قادر على رفع حاجة الموكِل.

الثالث: أنه ليس ببخيل.

الرابع: أن له محبة ورحمة للموكِل.

وعن موسى بن جعفر عليه السلام: قال الراوي: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، فقال: **التوكل على الله درجات؛ منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضيًا، تعلم أنه لا يألوك خيرًا، وفضلًا، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكلْ على الله بتفويض ذلك إليه، وثقْ به فيها وفي غيرها**»[1].

(١) أصول الكافي ج٢ ص ٥٣ باب ٣٢.

ذكر عليه السلام في هذا الحديث الشريف ركنين من أركان التوكل، الاعتقاد بهما أصعب:

أحدهما: أن يعلم الإنسان بأن الله تعالى لا يقصر في إيصال الفضل والخير إليه.

والآخر: أن الحكم في جميع الأمور للحق تعالى، وهو صاحب القدرة الكاملة المحيطة، ومجاري جميع الأمور بيد الحق جل وعلا.

بل لعله عليه السلام أشار إلى جميع أركان التوكل تصريحًا وتلويحًا، لأن لازم كون مجاري جميع الأمور في يد الحق تعالى، أن يكون عالمًا بجميع الأمور، ولازم عدم التقصير في حق العبد، أن لا يتطرق إليه البخل والمنع.

ولا بدّ من الإيمان بهذه الأمور ليتحقق التوكل، إذ لا تأثير لمجرد الاعتقاد، والعلم في هذا الباب؛ فمن الممكن أن يبرهن الإنسان في البحث العلمي البرهاني كلًا من هذه الأركان، ولكن لا يؤثر هذا العلم فيه بأي وجه؛ فعلى السالك أن يهتم بأن يوصل تلك الحقائق التي أدركها بالعقل إلى قلبه؛ وهذا لا يحصل إلا بأن ينتخب الشخص المجاهد لنفسه في كلِّ يوم وليلة، ساعة، يقلّ فيها اشتغال النفس بعالم الطبيعة والكثرة، فيشتغل بذكر الحق تعالى مع حضور القلب، ومنه الذكر الشريف: لا إله إلا الله؛ وهو أعظم الأذكار، وأشرف الأوراد[1].

---

(١) كنزالعمال، الجزء ٢، صفحة ٢١٧، الحديث ٣٨٣٥، ومرصاد العباد، ص٢٦٧، (أفضل الدعاء لا إله إلا الله، أفضل الذكر لا إله إلا الله).

وهكذا يوصل بقية أركان التوكل إلى قلبه، بشدة التذكر ورياضة القلب، إلى أن يستأنس القلب بتلك الحقائق. وفي هذا الحال تتجلى في باطن القلب لوازم هذه المعارف، ويظهر في ملكوت النفس نور التوكل، والتفويض، والثقة، وأمثالها؛ وينفصم الطفل الحديث الوجود عن ثدي الطبيعة وهي أمه الرضاعية، ويكون جديرًا بالأغذية الروحية غير المادية، ويرتقي إلى المنازل الآخرة.

عليك أن تفكر في النعم، والرحمات الإلهية، وتقطع يد طلبك عن المخلوق الضعيف، وتنظر إلى ألطاف الحق تعالى العامة والخاصة، وتقطع قدم السعي عن غير بابه تعالى، ولا تعتمد على غير ركن الرحمة الإلهية الركين فما لك غفلت عن ولي نعمتك، واعتمدت على نفسك وعملك، وعلى المخلوقين وعملهم، وارتكبت هذا الشرك الخفي، أو الجلي.

أيها العزيز، هل وجدت في مملكة الحق تعالى متصرفًا غير ذاته المقدسة؟ أو قاضيًا للحاجات غيره؟ أو وجدت يد رحمته تعالى قصيرة ومغلولة؟ ورأيت نطاقها قاصرًا عنك؟ أتظنه غافلًا عنك وعن حاجتك؟ أو ترى قدرته وسلطته محدودة؟ أو تنسبه إلى البخل، والغل، والشح؟

يا رب إن القوة والعزة مختصتان بك، والقدرة والسلطة منحصرتان بذاتك المقدسة، نحن المساكين الضعفاء من كثرة التعلق بالدنيا متحيرون، وعن نور الفطرة محجوبون ومحجورون.

مراتب التوكل

تختلف مراتب التوكل باختلاف المعرفة بأركانه، هذه المراتب هي:

الأولى: الإيمان بأركانه الأربعة، إذ يرى المؤمن أنّ كل الأشياء مخلوقة لله تعالى، ومنها نفسه، وجميع موجودات عالم الغيب والشهادة مخلوقة لإيصال الإنسان إلى مقامه، وورد في الأحاديث القدسية: «**يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي**» لذا يتوكل على الحق تعالى، ويتخذ الذات المقدسة لنفسه كفيلًا من أجل هذا المقصد العظيم.

الثانية: إذا بلغ في مرتبة الإيمان حد الاطمئنان، سقط التزلزل والاضطراب كليًا، وسكن القلب إلى الحق تعالى وتصرفه، وما دام الإنسان في هذه الحدود، فهو واقع في مقام الكثرة، ويرى لغير الحق تعالى تصرفًا.

الثالثة: إذا تجاوز المقام السابق بنور المعرفة، وجد تجليًا من تجليات التوحيد الفعلي، فيسقط تصرف سائر الموجودات ويُعمي بصر قلبه عن سائرها كليًا، وتستضيء عينه بالتوكل على الحق جلّ وعلا.

الرابعة: إذا تجاوز المقام السابق بالمشاهدة الحضورية، يشهد تجلي التوحيد، ويعرف أن توكله ذو علل، لأن التوكل هو إثبات الأمور لنفسه، وجعل الحق تعالى وكيلًا في أمور راجعة إلى نفسه، فيترك التوكل في هذا المقام، ويُرجع الأمور إلى الحق، ويرى التوكيل والتوكل والوكالة نقصًا وشركًا «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**».

وليُعلم أن ترك السعي، وتعطيل القوى التي أعطاها الحق تعالى، بداعي التوحيد والتوكل، هما من الجهل؛ لأن حقيقة التوحيد هي العلم بحقية جميع التصرفات الخلقية، ورؤية جمال الحق الجميل في مرآة الكثرة؛ فالسالك إلى الله لتصحيح مقام التوكل، لابد من أن ينقطع عن الأسباب الظاهرة بنور المعرفة، ولا يطلب الحاجة من الأسباب الظاهرة، لا أن يترك العمل.

التوكل في الكتاب والسنة

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾. إلى أن قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[1].

إن الله تعالى قال على طريق الحصر إن المؤمنين هم الواجدون لهذه الأوصاف، فغيرهم ليسوا بمؤمنين؛ ومن جملة الأوصاف، أنهم يتوكلون على ربهم، وتتعلق قلوبهم بذاته المقدسة، فالذين أعطوا قلوبهم لغيره، واعتمدوا على غير ذات الحق تعالى المقدسة، فارغون من حقيقة الإيمان ونوره.

وعن الصادق عليه السلام قال: «**من أعطي ثلاثًا لم يمنع ثلاثًا، ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطي**

(١) الأنفال: ٢ ـ ٤.

التوكل أعطي الكفاية، ثم قال: **أتلوت كتاب الله عز وجل**: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2][3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**الإيمان له أركان أربعة، التوكل على الله، والتفويض إليه، والتسليم لأمر الله تعالى، والرضا بقضاء الله**»[4].

«وسأل النبي صلى الله عليه وآله جبرائيل عن تفسير التوكل، فقال: اليأس من المخلوقين، وأن يعلم أن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع»[5].

الحرص

وهو ضد التوكل، وهو أحد جنود إبليس، وقلّما توثر مصيدة من مصائد إبليس على بني آدم كتأثيره. ويحصل من الجهل بالحق تعالى، ومجاري القضاء الإلهي؛ وصاحب هذا الخلق القبيح غافل عن الحق تعالى، وقدرته، ونعمه. وهذا الخلق الفاسد يوجه الإنسان إلى الدنيا،

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) أصول الكافي، المجلد٢، صحفة ٥٣، باب ٣٢ من كتاب الإيمان والكفر ح٦.

(٤) مستدرك الوسائل: النوري، المجلد١١، صفحة ٢١٥، باب ١١ من أبواب جهاد النفس، الحديث ١ والجعفريات، صفحة ٢٣٢، باب البر وسخاء النفس.

(٥) مستدرك الوسائل ج١١ صفحة ٢١٨، الحديث ١٣.

ويمكّن جذور حبها في قلبه، ويزين زخارفها فيه، ويورث الأخلاق والأعمال غير المرضية، كالبخل، والطمع، والغضب ومنع الحقوق الإلهية الواجبة وقطيعة الرحم، وترك صلة الإخوة المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[1].

إن نار جهنم لملتهبة، وبلهبها فإن اللحم والجلد، والعصب والعروق تنفصل عن العظم مرارًا، ثم تنبت من جديد. وتلك الشعلة تدعو من أدبر عن الحق، وتولى وجمع فأوعى، فالإنسان خلق حريصًا، إذا مسه الشر يجزع، وإذا مسه الخير يمنع، ولا يعطي الحقوق الإلهية والخلقية.

وليعلم أن الفطرة حيث هي محجوبة، فقد صارت طبيعة ثانية للإنسان، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ولا ينافي هذا خلق الفطرة على السلامة.

قال أبو جعفر عليه السلام: «**مثل الحريص على الدنيا، مثل دودة القز، كلما ازدادت من القز على نفسها لفًا، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمًا**». وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيرًا**»[2].

---

(١) المعارج: ١٥ ـ ٢١.

(٢) أصول الكافي: المجلد الثاني: صفحة ٢٣٨، الباب ١١٦، الحديث ٧.

المقصد العاشر والحادي عشر

الرأفة والرحمة وضدهما القسوة والغضب

الرأفة: كمال الرحمة؛ والرحمة والرأفة من لوازم الفطرة المخمرة، ومن جنود العقل، والرحمن؛ مخمرة في ذات الأسرة البشرية كلها.

إن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان من حقيقة رحمته والإنسان صورة الرحمة الإلهية كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[1] فنسب خلق الإنسان إلى اسم الرحمن، ولهذا فالإنسان الظالم، والقاسي القلب، متنفر فطريا من الظلم والقساوة، ولو غفل عن ظلمه وقساوته فهو بالفطرة يرفض القساوة والظلم من غيره، ويحب العدل والرحمة والرّأفة بحسب الذات.

---

(١) الرحمن: ١ ـ ٣.

تأثير الرأفة

الرحمة والرأفة من تجليات الأسماء الإلهية الجمالية؛ قد أعطاها الله تبارك وتعالى للحيوان مطلقًا، وللإنسان بالخصوص لحفظ النوع، ولولا هذه الرحمة، وهذا العطف في الحيوان، والإنسان، لانفصلت رابطة الحياة الفردية، والاجتماعية، وبهذه الرأفة والرحمة يحفظ الحيوان أولاده ويحضنهم، ويحرس الإنسان أسرته، ويحفظ السلطان العادل مملكته.

إن نزول الوحي الإلهي هو صورة الرأفة والرحمة الإلهيتين في عالم الملك؛ بل إن جميع الحدود، والتعزيرات، والقصاص، وأمثالها هي حقيقة الرأفة والرحمة، تجلت على صورة الغضب والانتقام: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1]. بل جهنم رحمة في صورة الغضب للذين لهم استعداد للوصول إلى السعادة، ولولا التخليصات والتطهيرات التي تحصل في جهنم، لما رأى الناس وجه السعادة.

وبالجملة: من كان قلبه خاليًا من الرأفة والرحمة لعباد الله فلا بدّ من أن يُخرَج من سلك هذه الجمعية، ويحرم من حق الانتماء إلى الأسرة البشرية؛ فعن الصادق عليه السلام أنه قال لأصحابه: «**اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه**»[2].

---

(١) البقرة ١٧٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج٨، ص٥٥٢،الحديث ١.

القسوة والغضب

القساوة: غلظة القلب، وشدته، وصلابته؛ أما الغضب فهو حركة، وحالة نفسانية يحدث بواسطتها في القلب غليان الدم للانتقام، فإذا اشتدت هذه الحركة تشتعل نار الغضب، وتمتلئ الشرايين والدماغ من دخان مظلم مضطرب ينحرف بسببه العقل، ويتوقف عن الإدراك والرّوية، وإن الموعظة والنصيحة في هذا الحال لا تنفعان الغاضب، بل تشعلان أكثر نار الغضب فيه.

ثمار القوة الغضبية

القوة الغضبية من النعم الإلهية العظيمة على الحيوان، ولاسيّما الإنسان، إذ تكفل هذه القوة الشريفة حفظ بقاء الفرد، والمجتمع؛ لأن الإنسان ما دام في عالم المادة والطبيعة له أعداء ومفسدات إذا لم يمنع منها، أفنته وأزالته.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾[1]، هذه هي حالة الاعتدال، بأن تكون الرحمة والشفقة في موضعهما، والشدة والغضب في موضعهما أيضًا؛ فعن الباقر عليه السلام أنه قال: «**أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى شعيب النبي عليه السلام: إني معذّب من قومك مائة ألف. أربعين ألفًا**

(١) الفتح: ٢٩.

من شرارهم، وستين ألفًا من خيارهم؛ فقال عليه السلام: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله ـ عز وجل ـ إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي»[1].

وفي باب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله أنه صلى الله عليه وآله لم يطلب العون لنفسه في أي مظلمة، حتى تهتك محارم الله فيغضب لله تعالى؛ ومن هنا علم أن الغضب هو الذي في مقابل الرحمة، ومن جنود الجهل، وليس الذي يكون تحت تدبير العقل، وتدبير الله، والشريعة السماوية المقدسة، بل المقصود حالة الإفراط فيه.

انحراف القوة الغضبية

تنحرف القوة الغضبية للإنسان عن الصراط السوي في حالين:

أحدهما: إذا لم يصرف الإنسان هذه النعمة الإلهية في موضعها، ولم يغضب في موضع الغضب.

والآخر: إذا صرف الإنسان هذه القوة الإلهية في خلاف المقصد الإلهي، فتتحول القوة الغضبية التي هي من جنود الله، إلى جنود عظام للشيطان والجهل.

---

(١) فروع الكافي: ج٥، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ١، صفحة ٥٧.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل**»[١].

وقلما يسوق الإنسان إلى الشقاء والهلاك شيء كنار الغضب الملتهبة. فربما يخرج الإنسان بسبب الغضب في آن واحد عن دين الله. ويتجاسر على الله تعالى، والأنبياء العظام، وربما يبتلى في غضب ساعة واحدة بقتل النفوس المحترمة، كما نقل عن الصادق عليه السلام أنه قال: «**كان أبي يقول: أي شيء أشدُّ من الغضب، إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة**»[٢].

علاج الغضب

قد بسطنا الكلام بالتفصيل في كتاب الأربعين، في شرح الحديث السابع، في موضوع الغضب وعلاجه، ومختصره:

أولا: علاج النفس الأساسي لابد من أن يكون في حال انطفاء شعلة الغضب، لأن الموعظة والنصيحة عند اشتعاله تزيد هذه الجمرة الشيطانية اشتعالا[٣]؛ ولهذا لابد من أن يعرض عليه في هذا الحال حالة مفاجئة لينصرف عن الأولى، إذا بقي للغاضب شعور وتمييز، كأن يخرج

(١)وسائل الشيعة: ج١٥،صفحة ٣٥٨، من أبواب جهاد النفس.

(٢) أصول الكافي: ج٢،ص ٢٢٩، كتاب الايمان والكفر، باب الغضب ح٤.

(٣) هذا التعبير مأخوذة من كلام للإمام الباقر عليه السلام يقول فيه: (إن هذا الغضب جمرة من الشيطان) أصول الكافي: ج٢، صفحة ٢٣١، ح ١٢.

نفسه من الموقف الموجودة فيها أسباب الغضب، أو يغير حالته كالجلوس إن كان قائمًا، والرقاد إن كان جالسًا، أو يشتغل بذكر الله تعالى. وهناك من أوجب ذكر الله في هذا الوقت[1].

عن الصادق عليه السلام: «**أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم اذكرني في غضبك، أذكرك في غضبي، لا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارضَ بانتصاري لك، فإن انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك**»[2].

ثانيا: علاج صاحب الغضب بغيره، قبل أن يشتد وتشتعل نار جهنمه، أو بتخويفه ـ ولا سيما تخويف صاحب القوة والقدرة ـ فتخمد نار الغضب في باطنه بسبب الخوف.. ولكن لابد من أن يلاحظ أن لا يكون في حالة شدة الاشتعال لأن التخويف في هذه الحالة لا يخلو من الخطر على صاحب الغضب.

وعلى أي حال فعلاج الغضب في حالة فورانه أمر صعب، نعوذ بالله منه.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، باب وجوب ذكر الله عند الغضب، ص ٣٦٤.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص ٢٦٠ ح٨ ـ ٩.

المقصد الثاني عشر
في العلم وضده الجهل

العلم في هذا الموضع من شؤون العقل، وفي مقابله الجهل، الذي هو من شؤون القوة الواهمة، ولعله ما عبّر عنه في لسان الشريعة المطهرة بالشيطان؛ إذ إن لجميع الموجودات الممكنة جهتين ووجهتين:، جهة النورانية والوجود والإطلاق والكمال، وهي وجهته الغيبية الإلهية. وجهة الظلمة، والتعّين، والماهية، والنقص، وهي جهة الأشياء النفسانية.

فالأشياء في الوجهة الأولى هي من الشؤون الإلهية، والآيات الربانية، وشأن العقل إدراك تلك الجهة النورانية التي هي آيات إلهية. وشأن الوهم والجهل. إدراك تعيّنات الأشياء، التي هي جهالة مركبة، وسراب وباطل، وبلا حقيقة: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1]؛ ونقل عن

---

(١) وتتمة البيت: وكل نعيم لا محالة زائل: ديوان لبيد ص ١٤٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أصدق شعر قاله العرب هذا الشعر**»[1].

والعلم من لوازم الفطرة غير المحجوبة، إذ تتوجه الفطرة إلى المعرفة المطلقة، التي هي كمال مطلق، وإذا احتجبت، فبمقدار احتجابها، تتأخر عن المعرفة، إلى أن تصل إلى مقام تكون فيه جهولة مطلقًا.

العلم من أفضل الفضائل

العلم، ولا سيما العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وآيات ذاته المقدسة، وكل ما هو مرتبط بالحق تعالى من أعظم الفضائل.

والعلم بطرق البراهين، وفنون الاستدلالات، والعلم بالمهلكات والمنجيات، والعلم بالسنن، وآداب الشريعة الإلهية المطهرة، من المطلوبات لغيرها، إذ يحصل منها العلم بالله؛ وجميع العلوم، والشرائع الحقة، والأعمال الموظفة، وكل ما هو متصل بعلم الأديان، سواء بواسطة، أو من دونها، ترجع كلها إلى العلم بالله. والميزان في الكمال هو معرفة الله، وآخر مراتبها الفناء المطلق؛ وهو ترك المظاهر، ورفض غبار الأنانية، والإنية؛ رزقنا الله إياها وجميع المؤمنين.

قال تعالى في تشريف آدم عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وجعل تعليمه الأسماء سببًا لتقديمه على أصناف ملائكة الله، وهذا العلم

(١) علم اليقين: للفيض الكاشاني ج١ ص ١٠٦.

بالأسماء هو العلم بحقائقها، ورؤية فناء الخلق في الحق الذي تتقوم به حقيقة الإسمية. وفي المقابل، كان نظر إبليس إلى الطين، وآدم، والنار، ونفسه، نظرًا استقلاليًا، وهو عين الجهالة والضلالة. وهذا الامتياز لآدم عن إبليس هو دستور كليّ لبني آدم، بأن يوصلوا أنفسهم إلى مقام الآدمية، وهو تعلم الأسماء، ويكون نظرهم إلى الموجودات نظر الآية والاسم، لا نظر إبليس الاستقلالي.

وفي أول آية أنزلها الله تعالى على رسولهﷺ قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1]؛ وجعل العلماء هذه الآيات الشريفة دليلًا على تقدم العلم على جميع الفضائل بوجوه:

الأول: ذكرها في بدء نزول الوحي، بعد نعمة الخلقة؛ فلو كانت فضيلة متصورة أعلى من العلم لكان من المناسب ذكرها.

الثاني: في الآيات ذكر مقام قدرته سبحانه، إذ خلق من المادة الوسخة المتعفنة التي هي أخس موجود، موجودًا شريفًا عالمًا، هو أشرف الكائنات، فلو لم يكن العلم هو أشرف الفضائل الإنسانية لم يكن ذكره مناسبًا في هذا المقام.

الثالث: أن ترتب الحكم على الوصف مشعر بالعلّية، فيُعلم أن أكرمية

(١) العلق: ١ ـ ٥.

الحق تعالى علّة لتعليم العلم، فلو كان شيء أفضل من العلّم كان الأنسب أن يذكر في هذا المقام بصيغة أفعل التفضيل[١].

الرابع: ما خطر ببالي في هذا الحال، وهو من أفضال الكريم، وهو أنّ نسبة التعليم إلى رب محمد صلى الله عليه وآله، وهو الإنسان الكامل، أكبر عظمة لحقيقة العلم.

ومن الآيات التي تدل على غاية شرف العلم وفضيلته، الآية الشريفة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[٢]؛ إذ قرن شهادة أولي العلم بشهادته، وشهادة ملائكته.

وأما الروايات الشريفة في فضل العلم، فهي كثيرة وفي (منية المريد) شطر كثير منها فليرجع الطالبون إلى تلك الصحيفة النورانية.

---

(١) التفسير الكبير: لفخر الدين الرازي المجلد ٢ صفحة ١٨٦ ـ ١٨٩.

(٢) آل عمران: ١٨.

المقصد الثالث عشر

الفهم وضده الحمق

الفهم: يطلق طورا على سرعة الانتقال والتفطن، وطورًا على صفاء الباطن وحدته الموجبين لسرعة الانتقال؛ ومقابل الأول البلادة، ومقابل الثاني الكدورة النفسانية، ولازمها الغباء والحمق.

وكون الفهم فطريًا بهذا المعنى من جهة إفاضة نعمة الوجود، وكمال الوجود من جانب الذات المقدسة، فكل ما كان من جانب تلك الحضرة، فهو طاهر، ومطهر، وصافٍ، وتام، وكامل.

ويمكن أن يكون المراد منه هنا، لصدوره عن منازل الوحي والنبوة، ومربي البشر والإنسانية، حال صفاء الباطن لإدراك الروحانيات؛ ومقابله الحمق حال كدورة وظلمة للنفس توجب غباء في إدراك الحقائق الروحانية والمطالب العرفانية.

وكون الفهم فطريًا بهذا المعنى، لأن فطرة الذات متوجهة إلى الكمال المطلق، وعاشقة للجمال الكامل.

وقد أشير في الآيات القرآنية الشريفة إلى هذين المقامين كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]؛ لأن المقصد الأصلي من جميع الشرائع الإلهية هو نشر المعارف، وهو لا يحصل إلا بعلاج النفوس، وطردها عن ظلمة الطبيعة، وخلاصها إلى عالم النورانية.

فيا أيها الحبيب: استيقظ قليلًا من النوم الثقيل، وضع القدم في حيّ المحبين: لا بل تحرك إلى حيّ الحبيب. إن جذر حب الدنيا والنفس، وفروعه من الحرص، والطمع، وحب الأهل، والأولاد، والمال، والجاه، وأمثالها، ما دامت حديثة الغرس في النفس فقلعها سهل، ولا يستلزم جهد عمال الموت، وملائكة الله، ولا الضغط على الروح الإنسانية؛ ولكن إذا استحمكت جذورها في عالم الطبيعة والدنيا، وامتدت فيها، فليس هذا كامتداد جذر الشجر إذ تصل جذورها إلى عالم الطبيعة كله؛ فالشجر مهما كبر لا يشغل من الأرض أزيد من أمتار، ولا يتجذر، ولكن شجر حب الدنيا يتجذر في عالم الطبيعة كله: الظاهر والباطن، ويجعل جميع العالم في حيازته.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

وفي الرواية الشريفة يقول الراوي: «سألت أبا عبد الله عليه السلام: من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه؟ ومن أبغض لقاء الله، أبغض الله لقاءه؟ قال: **نعم**، قلت: فو الله إنا لنكره الموت، فقال: **ليس ذلك حيث تذهب إنما ذلك عند المعاينة، إذا رأى ما يحب فليس شيء أحب إليه من أن يتقدم، والله تعالى يحب لقاءه، وهو يحب لقاء الله حينئذ. وإذا رأى ما يكره فليس شيء أبغض اليه من لقاء الله، والله تعالى يبغض لقاءه**»[1].

(١) فروع الكافي، ج٣، ص ١٣٤، كتاب الجنائز، باب ما يعاين المؤمن والكافر، ح١٢.

المقصد الرابع عشر
العفة وضدها الهتك

للنفس البهيمية جهة إفراطية يعبر عنها بالشره، وهو: إطلاق الشهوة، فتغالي، وتسرف، في كل موقع، وبأي شيء.

وللنفس البهيمية جهة تفريط يعبر عنها بالخمود، وهو: منع القوة الشهوية عن حد الاعتدال، والمقدار اللازم، وإهمال هذه القوة الشريفة التي أعطيت له، لحفظ الشخص، والنوع.

فإذا ارتاضت القوة الشهوية في ميزان العقل والشرع، وخرجت من حدّ الإفراط والتفريط، وصارت متحركة بالحركات العقلية الشرعية، ووقعت تحت تصرف عمال إلهيين، وخرجت عن الوهم، وعن تصرف الشيطان وخدعه، ستحل لها حالة السكون والطمأنينة، وملكة الاعتدال، والسير في وسط الطريق، ويعبر عنها بالعفة.

والمراد من الهتك في الرواية الشريفة مقابل، ومضاد العفة، والظاهر أنه طرف الإفراط والغلو، لأن الناس مبتلون بهذا الطرف، ونادرًا أن يخرج أحد اختيارًا عن حد الاعتدال إلى طرف التقصير والتفريط.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج**»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنما شيعة جعفر من عف بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه، فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر**»[2].

والعفة من الأمور الفطرية، ومن لوازم الفطرة المخمرة، ومن جنود العقل، والهتك من لوازم الفطرة المحجوبة، ومن جنود إبليس والجهل؛ لأن العدالة في القوى هي بمنزلة الجنس للعفة، وهي فطرية، والجور على خلاف الفطرة كما مر، وكذلك الخضوع والإطاعة الكاملة والتبعية للكمّل، فطرية، ومقابلها على خلاف الفطرة.

ثمار القوة الشهوية

القوة الشهوية من القوى الشريفة التي أعطاها الله تعالى للحيوان والإنسان، ومن ثمارها:

---

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ صفحة ٦٥ باب العفة الحديث ٧.

(٢) المصدر السابق: صفحة ٢٥١.

أولا: حفظ النوع، فلو لم تكن في الإنسان هذه القوة لكان مصيره إلى الفناء والزوال سريعًا. ولمّا كان تحصيل السعادة الأبدية لا يتحقق من دون البقاء في عالم الدنيا، والإقامة في نشأة الطبيعة، فسعادة الإنسان الأبدية وحياته الملكوتية الشريفة، مرهونتان بنعمة هذه القوة الشريفة.

ثانيا: دورها في تشكيل الأسرة الشريفة، ونظام المدينة الفاضلة، وتربية النفوس الناقصة. ففضلا عن أنّ سعادة الإنسان مربوطة بهذه القوة، فسعادة بني نوعه أيضًا متصلة بهذه المائدة السماوية.

إن هذه القوة كفيلة بالسعادات الفردية، والنوعية، ما دامت في حدود الاعتدال، فإذا تخطتها فربما كان بإعمال الشهوة في أيام، أو ساعات قليلة، تفكّك نظام أسرة شريفة، وتحلّ شقاوتهم ومسكنتهم إلى الأبد، وربما ينتفي شرف الإنسان، وأسرته، بسبب إطلاق العنان لهذه القوة؛ وأكثر الفجائع والفضائح تحصل في الجماعات التي تطلق العنان لهذه القوة؛ فأي جناية وخيانة أشد من أن تستعمل القوة التي هي لبقاء النسل، في قطع النسل بسبب استعمالها في غير موضعها، وعلى خلاف ميزان العقل؟ وإذا بقي له نسل بعد هذه الجنايات فسيكون مبتلى بأنواع البليات وأصناف الأمراض؛ والأطباء اليوم بعد التجربة، ينسبون أكثر الأمراض إلى الأمراض التناسلية، عند المريض، أو أبيه، أو أجداده، التي وصلت إليه بالوراثة.

ولو توجه الإنسان بقليل من الملاحظة إلى المفاسد التي تحصل في عالم ما وراء الطبيعة، على قول أطباء النفوس المرتبطين بالوحي الإلهي، لوجد أن هذه المفاسد الدنيوية قليلة الخطر بالنسبة إلى ما يقابلها.

تأثير الأعمال في القلب

لكل من الأعمال سواء الخيّرة أو الشريرة صورة غيبية ملكوتية، في نشأة الملكوت، وعالم الغيب، يرونها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

وكما أن للأعمال صورة ملكوتية، كذلك لكل منها أثر في قلب الإنسان، وقد عبر عنها في الروايات بالنكتة البيضاء، أو السوداء، فمن العمل الصالح المستوفي للشرائط الصورية والمعنوية، نورانية تحصل في باطن القلب، تقربه إلى معرفة الله والتوحيد، إلى أن تتمكن حقائق التوحيد وسرائره في القلب، ويسري منه في مُلك البدن أيضًا، وتكون أرض الطبيعة نورانية، ومشرقة بالنور الإلهي، وهذه غاية السعادة الإنسانية.

ولكل عمل من الأعمال السيئة، كدورة تحصل في القلب، وظلمة تبعد الإنسان عن مقام القدس، وقرب الحق جل وعلا، وتحجره عن

(١) الزلزلة: ٦ ـ ٨.

المعارف الإلهية، وتقربه إلى عالم الطبيعة والدنيا، الذي باطنه سجّين والهاوية، إلى أن يفنى القلب وجميع شؤونه الغيبية في الدنيا والطبيعة، ويرتفع عنه حكم الروحانية والإنسانية.

ولهذا لابدّ من أن يُعلم أن للإنسان أربع قوى: أولها: القوة العاقلة، وثانيها: القوة الغضبية، وثالثها: القوة الشهوية البهيمية، وآخرها: القوة الواهمة الشيطانية، فإذا سار الإنسان في هذا العالم على طريق الإنسانية المستقيم، وعدّل تلك القوى الثلاث وجعلها تابعة للروحانية والعقل، وصار سير الباطن والظاهر تحت حكم الشريعة الإلهية، فيجد باطنه ملكة الاستقامة، وتكون صورة الروح والباطن الصورة الإنسانية المستقيمة؛ فصورته الجسمانية في ذلك العالم مستقيمة، وظاهره كذلك، وعلى صورة إنسانية جملية.

وإذا تبع مقام روحانية النفس، ونشأتها العقلية، إحدى القوى الثلاث الأخرى، فستكون الصورة الملكوتية الباطنية تابعة لها، والصورة الملكوتية الغيبية هي إما على صورة سبع من السباع المفترسة، إذا كانت الغلبة للقوة الغضبية، أو على شكل بهيمة من البهائم، إذا أصبحت الغلبة للشهوة، وأصبحت المملكة مملكة شهوية، أو على شكل شيطان من الشياطين، إذا كانت الغلبة للواهمة الشيطانية، ودخلت المملكة في تصرف الشيطان.

ويمكن للإنسان في ذلك العالم أن يكون له في آن واحد أكثر من صورة واحدة، أو يكون له في كل حال صورة، مرة سبعية، وثانية بهيمية، وثالثة شيطانية.

أيُّها العزيز: كلٌ منا، لو أخبره طفل عمره عشر سنين أن حريقًا وقع في بيته، أو أن ابنه وقع في الماء، وهو الآن يغرق، فسنترك الاشتغال بالعمل المهم، ونرفع اليد عنه، ونركض وراء تلك الأخبار الموحشة، فهل جميع الآيات والأخبار والبراهين والعيان لم تؤثر فينا تأثير خبر طفلٍ ابن عشر سنين؟!. هل يمكن أن نقول لمن لم يهتم بخبر الأنبياء، والكتب السماوية بمقدار اهتمامه بخبر طفل: إنه مؤمن؟ فإذا وجدت ذلك في نفسك، فاعلم أن دخان الشهوة والغضب، قد أعمى أعيننا الباطنية، وسد مجاري إدراكنا، وتصرف الشيطان والنفس أصمّ آذاننا عن سماع الحق والآيات الإلهية.

إن الإنسان إذا انحرف عن الطريق المستقيم فاق البهائم، والسباع، والشياطين، في كل باب من أبواب البهيمية، والسبعية، والشيطانية، لأن لقواه سمة الإطلاق، وغيره من الموجودات محدود ومقيد. فشهوة الإنسان البهيمية بلا نهاية، ونار غضبه تحرق العالم، وشيطنته وأعماله الثعلبية جعلت أهل العلم أشقياء ومساكين.

المقصد الخامس عشر

الزهد وضده الرغبة

الزهد: عدم الرغبة، والميل؛ وهما من الصفات النفسانية. ورد أن رجلًا سأل علي بن الحسين عليهما السلام عن الزهد، فقال: «**ألا وإن الزهد في آية من كتاب الله:** ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾»[1]، وهذا شاهد على أن الزهد من الصفات النفسانية الملازمة للعمل، لا الترك نفسه.

إن للإنسان فطرتين:

أصليّة: وهي فطرة عشق الكمال المطلق.

وفرعية: هي فطرة التنفر من النقص؛ ولما كان الحق جل مجده خلق

---

(١) وسائل الشيعة: المجلد ١٦ صفحة ١٢ باب ٦٢ من أبواب جهاد النفس ح٦.

الإنسان لأجله، ففي الحديث القدسي: «**يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي**»[1]، فلهذا فطر الإنسان بهاتين الفطرتين، في الجعل الإلهي التكويني، إذ ينقطع بإحداهما عما سواه، ويتصل بالأخرى بجمال الجميل. فالزهد، وهو تنفر عن النقص، وإعراض عن غير الحق تعالى، يرجع إلى الفطرة المخمرة المفطورة، ومن أحكام فطرة الله الفرعية؛ والرغبة إلى غير الحق هي الاحتجاب بسبب عن الفطرة، لأن الفطرة بعد الاحتجاب بحجب الطبيعة تظن محبوبها ـ اشتباهًا ـ في شعبة من شعبها، فتتعلق محبتها بها، ويتعلق قلب الإنسان بها، فيتأخر عن جمال الجميل ويحرم من لقاء الله ويحجب عنه.

درجات الزهد

للزهد درجات، منها:

الدرجة الأولى: زهد العامة، بالإعراض عن الدنيا للوصول إلى نعيم الآخرة. وهذه الدرجة في الحقيقة مكتسبة من الإيمان ببعض منازل الآخرة، وصاحب هذا المقام أسير الشهوة، ولكن بحكم العقل، تركَ الشهوات الزائلة الحقيرة للوصول إلى اللذات الباقية الشريفة؛ والإعراض عن الدنيا خوفًا من عقاب الآخرة.

---

(١) علم اليقين للفيض للكاشاني ج١ صفحة ٣٨١.

ووصف الصادق عليه السلام للزاهد في الدنيا بأنه: «**الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عقابه**»[1]، جاء لمراعاة إدراكات السائل، بمعنى: أنهم بينوا لكل شخص من مراتب المقامات الإنسانية ما يناسب مقامه ومرتبته.

الدرجة الثانية: زهد الخاصة، بالإعراض عن المشتيهات الحيوانية، واللذائذ الشهوانية، للوصول إلى المقامات العقلانية، والمدارج الإنسانية، ولمّا كان هذا الإعراض للذةٍ، وإن كانت روحانية، فالقدم النفسانية في الوسط، وليس زهدًا حقيقيًا بل ترك شهوة ولذة، لشهوة ولذة.

الدرجة الثالثة: زهد أخص الخواص، بالإعراض عن اللذات الروحانية، وترك المشتهيات العقلانية، للوصول إلى جمال الجميل الإلهي، والى حقائق المعارف الربانية، وهذا أول مقامات الأولياء والمحبين، ومن مراتب الزهد العالية، فالزهد الحقيقي لصاحب هذا المقام يحصل بحسب أول مرتبة؛ والزهد الحقيقي بالاستغناء عن اللذات، وعدم الالتفات إليها، وبعد هذا مقامات أخر للأولياء لا يتسع المقام لذكرها.

منزلة الزهد

إنّ جميع الدعوات الإلهية، هي إما دعوة إلى الإقبال على الحق تعالى،

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج١، ص ٢٤٣ح٨١.

أو إلى الإعراض عن غيره. وجميع الأعمال القلبية، والقالبية، والظاهرية، والباطنية، إما الإقبال على الله نفسه، أو إعانة له؛ وإما إعراض عما سوى الله، أو إعانة له.

وفي هذا الحديث الذي نحن في صدد شرحه: «**قلنا للعقل أقبل فأقبل، وقلنا له أدبر فأدبر**»[1]، لعل حصر الأمر الإلهي بالإقبال، والإدبار، إشارة إلى أن جميع الأوامر، والنواهي الإلهية، ترجع إلى هذين المطلبين.

وإذا علم هذا المطلب فقد علمت منزلة الزهد، والإعراض عن الدنيا، وعما سوى الله تعالى، وهو الزهد الحقيقي بالنسبة إلى السلوك الإنساني، وتحقق أن الإعراض عن غير الحق تعالى، مقدمة للوصول إلى جمال الجميل، والاستغراق في بحر المعارف والتوحيد، وليس الزهد بنفسه من الكمالات الإنسانية، والمقامات الروحانية، حتى يكون مورد توجه استقلالي.

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا**»[2].

وعنه عليه السلام أنه قال: «**كل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط، وإنما**

---

(١) أصول الكافي: المجلد ١ صفحة ٨ كتاب العقل والجهل ح١ وفي الأصل وردت كلمة قال بدل قلنا ونقلناها بهذه الصيغة مراعاة لأمانة الترجمة.

(٢) أصول الكافي ج٢ ص ١٠٤ باب ذم الدنيا والزهد فيها ح٢.

أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[١].

وروي أنه لما سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾[٢] أجاب: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح**»، قيل: يارسول الله، وهل لذلك علامة قال: «**نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[٣]. فمن المعلوم أنه ما دام القلب متوجهًا إلى عالم الطبيعة الظلماني، وبئر الدنيا الضيق المظلم، فهو ضيق، وظلماني وليس قابلًا لنور الهداية، وتجلي الجمال، والجلال؛ وبقدر انصرافه عن الدنيا، وزخارفها، يحصل له شرح الصدر، ويقبل النور المعنوي، إلى أن ينصرف كليًا عن دار الغرور، فيليق بتجلّي النور المطلق، وجمال الجميل.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا، داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالمًا إلى دار السلام**»[٤].

فبالزهد في الدنيا، والإعراض عنها، يستقر في القلب نور الحكمة،

---

(١) المصدر نفسه، الباب نفسه، ص ١٠٥ح٥.

(٢) الأنعام: ١٢٥.

(٣) مجمع البيان للطبرسي: ج٤ص٥٦١.

(٤) أصول الكافي: ج٢ صفحة ١٠٤ باب ذم الدنيا الحديث ١.

وهو الهادي لطريق السعادة، والوصول إلى مقام كمال الإنسانية، ويجري من القلب إلى اللسان، كما ورد في باب الإخلاص أيضًا: «**ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين صباحًا إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[1].

وإذا حصل الزهد الحقيقي للإنسان يخرج من الدنيا إلى دار السلامة سالمًا بكل معنى السلامة، وبلا عيب، لأن جميع العيوب تحصل من التعلقات، فإذا لم تكن تعلقات إلى غير عز القدس، تحصل السلامة المطلقة.

الرغبة في الدنيا

الرغبة في الدنيا موجبة للاحتجاب عن الحق تعالى، والتأخر عن السلوك إليه؛ والمقصود من الدنيا كل ما يشغل الإنسان عن الحق تعالى. إن وجود كل موجود حجاب، وتعينه أيضًا حجاب، وهذه الحجب تمنع الانسان عن جمال المحبوب؛ والتعلق بكل ما هو غير الحق تعالى شوك في طريق السلوك إليه تعالى، لابد له من رفعه بالرياضة الشرعية؛ فلا يمكن العروج إلى الكمالات الروحانية، والوصول إلى لقاء جمال الجميل مع التعلق بغير الحق تعالى، وتبعية شهوات البطن والفرج.

---

(١) بحار الأنوار: المجلد ٦٧ ص ٢٤٢ الحديث ١٠.

المقصد السادس عشر

الرفق وضده الخرق

الرِفق (بالكسر) ضد العنف، وبمعنى: المداراة؛ **وفي الحديث**: «**إذا كان الرفق خرقًا كان الخرق رفقًا**»[1] ومعناه: إذا كان الرفق والمداراة سببًا للخرق والمشقة، فلابد من أن تترك المداراة ويعمل بالخرق؛ وهو عين المداراة. إن الحق تعالى شأنه يعامل خلقه في جميع الأمور بالرفق والمداراة، حتى في تشريع الشرائع، لأن الهداية إلى طرق السعادة والكمال، عين الرفق، كما أن تأديب الطغاة، وجعل الحدود والتعزيزات، كمال الرفق والصلاح، لأن تركه خرق، وفساد حتى لمستحقها.

ولّما كان الرفق من تجليات الرحمة الرحمانية، فهو من لوازم الفطرة، لأن قلوب الأسرة البشرية كلها بحسب فطرتها مخمرة بالرحمة، والعالم

---

(١) نهج البلاغة: صفحة ٤٠٢.

صورة للرحمة الرحمانية، فمن هذه الجهة قال أهل المعرفة: «ظهر الوجود ببسم الله الرحمن الرحيم»[١]. ولازم محبة الحق تعالى ـ وهي من الفِطَر الأصلية ـ محبة الأفعال والخلائق، ولازم المحبة الرفق والمداراة. فالرفق إذًا من لوازم الفطرة المخمرة، ومقابله الخرق من احتجابها.

الرفق في أمور الإنسان

للرفق والمداراة دخل كامل في تحقق الأمور الدنيوية، فلا يمكن للإنسان أن يتصرف بالشدة، والعنف، في قلوب الناس، ويخضعهم، ويلين جانبهم؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**من كان رفيقًا في أمره نال ما يريد من الناس**»[٢]. ولو فرض أن أحدًا أطاع إنسانًا عن طريق الشدة والسلطة، فما لم يكن قلبه موافقًا فلا يأمن الإنسان من خيانته، ولكن الرفق والمحبة يجعلان القلب خاضعًا، وبخضوعه تخضع جميع القوى الظاهرة والباطنة؛ وفتح القلوب أشرف، وأرفع، من فتح الممالك.

وكذلك الأمر في المقاصد الدينية، من قبيل الإرشاد وهداية الناس، فمن دون الرفق، والمداراة، في المهمات لا يتحقق هذا المقصد الشريف.

إن الله تبارك وتعالى بعدما أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يذهبا إلى

---

(١) الفتوحات المكية: للشيخ محي الدين بن عربي.

(٢) أصول الكافي: المجلد ٢ ، باب الرفق ح ١٦.

فرعون، ويدعواه، ويرشداه، كان من جملة التعليمات أن قال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1]، إن قلب فرعون القاسي قد بلغت أنانيته إلى حد ادعى الربوبية، فجلبُ قلبه بالرفق والمداراة أحسن؛ ولذا يقول تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي، والباغي وتكلما معه بالرفق، والمداراة، لعل هذا الكلام اللين يذكره بالله، ويخوفه من يوم الجزاء؛ وهذا دستور كلي لجميع هداة طريق الحق، الذي يفتح أمامهم الطريق لفتح القلوب؛ إذ إن أعظم تعب، وأشد مشقة، لهداة طريق الحق، كان ولا يزال معاشرة الجاهلين، ودعوة الحمقى؛ ولذا كان لابد لهم من أن يتصفوا بأعظم الأخلاق الحسنة، وأن تكون قوة الرفق، والمداراة، وحسن العشرة فيهم إلى حد يقاومون جميع جهالات الجهال الذين لا عقل لهم.

وفي باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أنّ الأمر والنهي مر وغير مستساغ لذائقة الإنسان، ويحرك الغضب والعصبية، فعلى الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، أن يجبر هذه المرارة، وعدم الاستساغة، بحلاوة البيان، والرفق، والمداراة، وحسن الخلق، كي يكون كلامه مؤثرًا، فيليّن ويخضع قلب العاصي القاسي.

عن عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**يا عمر، لا تحملوا على شيعتنا، وارفقوا بهم، فإن الناس لا يتحملون ما تحملون**»[2] وهذا الحديث

(١) طه: ٤٣ و٤٤.

(٢) روضة الكافي: ج٨ ص ٢٧٥ ح ٥٢٢.

دستور كلّي للخواص، لأن الناس يختلفون في تحمل العلوم والمعارف، وأيضًا في تحمل الأعمال القلبية والقالبية، ولا يمكن إفشاء كل علم لكل أحد، ولاسيما في باب المعارف، بل إن سرائر التوحيد، وحقائق المعارف، أسرار لابد من أن تكون مكتومة، ومخزونة عند أهلها.

وفي باب رياضة النفس وسلوك طريق الحق تعالى، الرفق بالنفس أيضًا ومداراتها من المهمات، وربما يكون التشدد مع النفس خصوصًا في أوائل الأمر، ولا سيما للشباب، موجبًا لنفور النفس من الرياضة والسلوك، فيفرون من تحمل ثقل الحق؛ فعن أبي جعفر عليه السلام: «**ن لكل شيء قفلًا وقفل الإيمان الرفق**»[1]؛ فإذا رفقت النفس وجدت أنسًا، ومحبة للعبادات، والطاعات، وبواسطة هذه المحبة، والعلاقة، تجد المحبة للحق تعالى، والأنس به؛ وهذا فتح لباب المعارف الإلهية الذي هو منبع الإيمان. وأن العنف والخرق ربما يكونان سببًا لأن تصير العبادة والعبودية مرة وغير مستساغة في ذائقة الروح، وهذا يسبب إعراض القلب عن الحق تعالى؛ فعن الباقر عليه السلام أنه قال: «**من قسم له الخرق، حجب عنه الإيمان**»[2].

(١) المصدر نفسه، ص ٩٦ح١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٢ح١.

المقصد السابع عشر

الرهبة وضدها الجرأة

الرهبة: الخوف. والخوف من الحق تعالى من جنود العقل، ومن مُصْلِحات النفوس، ومقابله الجرأة على الحق، وهي من جنود الجهل؛ والرهبة لا تنافي رجاء الرحمة.

درجات الخوف

تختلف درجات الخوف باختلاف درجات العباد، والسالكين إلى الله، ودرجات المعرفة، وهي:

الدرجة الأولى: خوف العامة، من العذاب، أو فقدان الثواب، وعدم الوصول إلى اللذائذ المحبوبة، وعبادتهم عبادة العبيد أو الأجراء[1]؛

---

(١) وسائل الشيعة: ج١ صفحة ٥٩ ـ باب ٩ الأحاديث ١ ـ ٣.

وتقابلها الجرأة على المعاصي.

الدرجة الثانية: الخوف من عقاب البعد عن ساحة المولى المقدسة، فيكون الإنسان موضعًا للعقاب، وعدم اللطف. هؤلاء ابتعدوا عن التوجه إلى اللذات الحيوانية، والشهوات الطبيعية، ولكن اللذات المعنوية موجودة في ذائقة أرواحهم، إذ يطلبون قرب المنزلة والمقام. ومادام هذا الطلب موجودًا فنفسه ليست خالصة من الصبغة النفسانية، ولا خالية من الصبغة الشيطانية؛ فدين الله يجب أن يكون خالصًا من الشوائب ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]؛ وتقابلها الجرأة على الزلات.

الدرجة الثالثة: خوف أخص الخواص، وهو الخوف من الاحتجاب، فهؤلاء لا يتوجهون إلى العطية، فالتوق إلى الحضور، ولذته، قطعهم عن الدارين؛ ولكن ما دامت بقايا النفسانيّة، والأنانيّة موجودة، ويتوقون أن يحصل لهم المشاهدة والحضور، فلا يمكن أن ننسب إليهم محبة الله والخلوص الحقيقي؛ وتقابلها الجرأة على الدخول في الحجب اختيارًا.

الدرجة الرابعة: خوف الأولياء وهم طاهرون مطهرون من صبغة الإنيّة والأنانيّة ومصبوغون بصبغة الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[2]؛ هؤلاء تحصل لهم الرهبة من تجليات الجمال، والجلال، على

(١) الزمر: ٣.

(٢) البقرة: ١٣٨.

قلوبهم الصافية، وليعلم أن في كل جمال جلالًا، وعظمة مختفيين، ولهذا يحصل من تجلّي الجمال الرهبة، والخوف، وهذا الخوف من العظمة له ثلاث مراتب، لأنه يحصل من تجلي الأفعال، والأسماء والصفات، والذات؛ وتقابلها الجرأة على الإعجاب بالنفس واتخاذ الصبغة النفسية الشيطانية ذاتًا وصفة وفعلًا.

والرهبة والخوف الحقيقيان في هذه الدرجة الأخيرة، وليس فيها للنفسانية والأنانية دخل.

إن التعظيم، والرهبة من العظيم، من الأمور الفطرية التي خمرت عليها البشرية كلها، وإن الرهبة والخوف الحاصلين في القلوب من السلاطين والجبابرة ـ حتى عند الأمن من الضرر ـ ناتجان عن فطرة تعظيم العظيم. ولهذا في حضور السلطان العادل يكون الأشخاص الذين لم يصدر عنهم أي معصية أو ظلم، متصاغرين خائفين، راهبين، ولهذا، ليس في قلوبنا، نحن المحجوبين، خوف ورهبة من الحق تعالى، لأننا لم ندرك بعد عظمته، لأن الفطرة محتجبة بحجب الطبيعة الغليظة، ومن هنا نتجرأ على المولى؛ أما الذين خرجوا من حجاب الطبيعة، وتجلت عظمة الحق عظم شأنه في قلوبهم، فقلوبهم ترتعد من نور عظمة الجلال، وسطوته، من دون توجه إلى نفعٍ، أو ضرر، من ودون الالتفات إلى جهنم والجنة.

ففي ليلة المعراج كانت الغشوة تأخذ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بمشاهدة كل تجل من تجليات العظمة، ثم تحصل له الإفاقة من تجليات الأنس والرحمة، فلم يكن هناك خوف من شيء غير العظمة، ولم يكن من العذاب، أو العقاب، اسم ولا رسم.

أما الجرأة، بأي مرتبة كانت، فلا توجد بلا احتجاب الفطرة.

المقصد الثامن عشر

التواضع وضده الكبر

المحبة المفرطة للنفس تسبب احتجاب الإنسان عن نقائصه، وعيوبه، فلا يرى قبائحه، بل ربما تتجلى مساوئه في نظره محاسن؛ ويرى فضائله مضاعفة، ويرى مساوئ الآخرين مضاعفة، فإذا رأى كمال نفسه، ونقص غيره، بعين الحب المفرط لنفسه، فستحصل لديه حالة إعجاب بالنفس، فيرى نفسه أعظم من الناس، وهذه الحالة هي الكبر. وإذا ظهرت هذه الحالة القلبية في ملك البدن، يطغى، ويرتفع، ويظهر الرفعة في الظاهر أيضًا على الآخرين، وهذا هو التكبر.

وإذا خرج عن هذا الاحتجاب ورأى نفسه كما هي، بل نظر إلى نفسه بعين التعييب، وأساء الظن بنفسه، تكون نفسه عنده حقيرة، وذليلة، ويلمس ذلتها، وافتقارها، وإذا أحسن صاحب هذا النظر الظن

بالآخرين، وعظم خلق الله، ومظاهر جمال الحق تعالى، وجلاله، فهو يوجد في نفسه حالة التذليل، والخجل، فيرى نفسه أصغر من الآخرين؛ وهذه الحالة هي التواضع القلبي، فإذا ظهرت آثاره في ملك البدن، يقال: إنه تواضع، وصار متواضعًا.

إنّ الإنسان بدافع الفطرة الأصلية غير المحجوبة بأحكام الطبيعة، يتواضع للحق تعالى بالذات، ولمظاهر جماله، وجلاله بالعرض، والتواضع للعباد عين التواضع للحق تعالى، ويد تصرف النفس وإبليس قاصرة عن هذا التواضع، الذي هو أساس الفطرة الأصلية، للنفس، وحبها، ومنزه، ومبرأ، عن الطمع، وانتظار الفائدة.

إن صاحب هذه الفطرة لا يتملق أحدًا من المخلوقات، لأن مبدأ التملق هو حب النفس، والاحتجاب عن الحق تعالى. فاتضح أن التواضع للحق، والخلق، من لوازم الفطرة المخمرة، ومن هنا يعلم أن التكبر، والتملق، كلاهما من الفطرة المحجوبة، لأن الإنسان إذا احتجب بالحجب النفسانية، وتحكّم به الإعجاب بالنفس، وحبها، أثبت لنفسه كمالات كثيرة، وغفل عن مبدأ الكمالات، ولو لم يكن له طمع مادي في الآخرين لكان احتقرهم.

وإنّ بين التواضع والتملق فروقًا كبيرة في المبادئ والغايات والثمرات.

فالتواضع مبدؤه العلم بالله، والعلم بالنفس، وغايته الله، أو كرامة الله ونتيجته، وثمرته الكمال النفساني، والتملق مبدؤه الشرك، والجهل، وغايته النفس، وثمرته الخفة، والذلة، والنقص، والعار.

وكذلك بين التكبر وعزة النفس، فالتكبر مبدؤه الإعجاب بالنفس، وحبها، والجهل، والغفلة عن الحق ومظاهره، وغايته النفس، والغرور، ونتيجته التمرد والطغيان؛ وعزة النفس مبدؤها التوكل على الله، والاعتماد على الحق تعالى، وغايتها الله، وثمرتها ترك غيره.

درجات التواضع والتكبر

للتواضع درجات يقابلها التكبر في كل درجة، هي:

الأولى: تواضع الأولياء الكمّل، والأنبياء العظام، إذ إنهم بواسطة تجليات الذات، والأسماء، والصفات، والأفعال، في قلوبهم، يتواضعون في حضرة الحق تعالى، ومظاهر جمال تلك الذات المقدسة، وجلالها، وتوجد غاية التواضع والتذلل في قلوبهم، مشاهدة كمال الربوبية، وذلة العبودية، وكلما تكاملوا في هذين النظرين، وهاتين المشاهدتين، تكاملوا في حقيقة التواضع.

هذه الطائفة، فضلا عن التواضع، لهم مقام المحبة أيضًا، وعندهم المحبة لمظاهر الحق تعالى تبعًا لمحبته؛ وهذا التواضع المشفوع بالمحبة أكمل مراتب التواضع.

الثانية: تواضع أهل المعرفة، ففيهم أيضًا تواضع الأولياء، ولكن بمرتبة أدنى، لأن مقام المعرفة يختلف عنه بالمشاهدة الحضورية.

الثالثة: تواضع الحكماء، فهم أيضًا إذا وصلوا إلى مقام الحكمة الإلهية، وتنورت قلوبهم بنورها، يتواضعون للحق، والخلق، كما أوصى في الحكم اللقمانية بهذا خاصته[1].

الرابعة: تواضع المؤمنين الذين حصّلوا العلم بالله بنور الإيمان، وعرفوا أنفسهم بقدر نورهم، فتواضعوا للحق تعالى، وللخلق.

شرح الصدر وضيق الصدر

للتواضع والتكبر موجبات وأسباب كثيرة من جملتها شرح الصدر وضيقه. إن الإنسان المشروح الصدر لا يهتم بكلّ ما رأى في نفسه من الكمال، والجمال، والمال، والمنال، والدولة، والحشم، ولا يستعظمه؛ فطلب الحق يوجب سعة الصدر، وسعة الصدر توجب التواضع، وعزة النفس، وفي المقابل حب النفس، والإعجاب بها من ضيق الصدر، ويوجبان أيضًا ضيقه، وهو مبدأ التكبر، لأنه سبب وجود ضعف القابلية، وضيق الصدر عنده، فكل ما رأى في نفسه استعظمه، ودلّ به

---

(١) إشارة إلى موعظة لقمان لابنه وقوله له: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان: ١٨).

وافتخر، وفي الوقت نفسه لمّا كان أسير نفسه، فللوصول إلى مقاصدها، يتذلل ويتملق عند أهل الدنيا الذين يطمع فيهم.

إنّ مبدأ جميع المبادئ في الكمالات هو معرفة الله، وترك النفس، ومبدأ جميع النقائص والسيئات هو حب النفس، والاغترار بها، وطريق إصلاح جميع المفاسد هو الإقبال على الحق تعالى، وترك الأهواء النفسانية: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[1].

و«**أم الأصنام صنم نفسك**»[2].

إن معرفة الله تأتي من خلال حب الله، وهذا الحب إذا كمل يجعل الإنسان منقطعًا عن نفسه، فإذا انقطع عن نفسه انقطع عن جميع العوالم، ولم يطمع في نفسه، ولا في الآخرين، وكان طاهرًا من رجس الشيطان، ورجس الطبيعة، وطلع نور الأزل في باطن قلبه، وسرى من الباطن إلى الظاهر، وكان قوله وفعله نورانيًا، وجميع قواه وأعضاؤه إلهية ونورانية؛ فهو في الوقت الذي يتواضع، لا يتملق أحدًا من جميع الخلق، ولا يفتح عين رجائه وطمعه عند أحد، ولا ينظر إلى ما في أيدي الخلائق، وعلى العكس من هذا، الاحتجاب عن الحق تعالى، والإعجاب بالنفس،

---

(١) النساء ٧٩.

(٢) مضمون صدر بيت للمولوي هو بتمامه:

مادر بتها، بت نفس شماست زانكه آن بت مار واين بت اژدهادست

والغرور، وحب النفس، تجعل الإنسان منقطعًا عن الله، وأسيرًا للنفس، فإذا صار عبدًا لنفسه فكلما رأى لذة لها ذهب القلب إليها؛ وخضع عند أصحاب الدنيا، والمال، والمنال، ناظرًا إلى ما في أيديهم؛ وفي الوقت نفسه يتكبر على الذين هم دونه، وليس له عين رجاء فيهم.

موعظة في التواضع

كل علم وعمل يبعدان الإنسان عن الأهواء النفسانية والصفات الإبليسية ويقللان من طغيان النفس، فهما العلم النافع الإلهي، والعمل الصالح المطلوب. وكل علم وعمل يوجدان في الإنسان العجب والطغيان، أو على الأقل لم يبرئاه من الصفات النفسانية، والرذائل الشيطانية، فذينك العلم والعمل من تصرف الشيطان والنفس الأمارة.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**يا طالب العلم إن العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع وعينه البراءة من الحسد.**»[1].

أيُّها العزيز: قم من نومك الثقيل، وعالج هذه الأمراض المختلفة بالقرآن والحديث، وتمسك بحبل الله المتين وذيل أولياء الله، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله ترك هاتين النعمتين العظيمتين لنا، لننجو من ظلمات الطبيعة بواسطة التمسك بهما، ونتخلص من هذه الأغلال، ونتصف بسيرة

(١) أصول الكافي: المجلد ١ ص ٨٣ كتاب فضل العلم باب ١٤ ح٢.

الأنبياء، والأولياء، فما بالنا حتى تبعدنا علوم الأنبياء والأولياء عن الله كل يوم، وتقربنا إلى الشيطان؟ ومتى نفكر في الإصلاح؟. لقد صرت طالبًا للعلم، وتجاوزته، فصرت عالمًا، وجلست على مسند الفقه، والفلسفة، والحديث، وأمثالها، ولكن لم تصلح نفسك! ومتى ترفع قدمك في سبيل الله؟ كل هذه كانت دنيا، وقد قربتك إلى الدنيا، وأبعدتك عن الله، والآخرة، وزادت في قلبك العلاقة بالدنيا والطبيعة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1]؛ إن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «**يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي! قالوا قضيت حاجتك يا روح الله. فقام فغسّل أقدامهم، فقالوا: كنّا نحن أحق بهذا يا روح الله. فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم. إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم؛ ثم قال عيسى عليه السلام: بالتواضع تعمر الحكمة، لا بالتكبر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل**»[2] ؛ فالعالم الذي لم يتصف بالتواضع، ويتوقع من الناس الخضوع، والتواضع، فليس بعالم، وما ادخره من المفاهيم رجس شيطاني، فلو كانت هذه المفاهيم تؤدي إلى السعادة والسلامة، لكان إبليس سعيدًا.

---

(١) الحديد ١٦.

(٢) أصول الكافي: المجلد ١، كتاب فضل العلم باب صفة العلماء الحديث ٦.

وأما أهل العمل، والزهاد، والعباد، فلا بد لهم من أن يفتشوا عن أحوال أنفسهم، ويتجسسوا فيروا ماذا تركت خمسون سنة من العبادة، والزهد، في قلوبهم من الآثار؟ وهل صلاة خمسين سنة قربتهم من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وأحباء الله، وأوجدت فيهم الخوف، والخشية، والتواضع، وأمثالها، أو أنها أوجدت فيهم العجب، والكبر، فهم يُدِلّون، ويتكبرون على عباد الله، ويتوقعون منهم الاحترام والإكرام؟. إن صلاةً هي معراج المؤمن، ومقربة المتقين، لا بد من أن تقطع علائق الدنيا عن القلب، وتفك عنه أغلال الطبيعة، وتجعله إلهيًا، وربانيًا. إن السجود على التراب خمسين سنة لابد من أن يوجد في الإنسان روح التواضع، والتذلل، إذا لم يكن تصرف الشيطان في الوسط.

أحاديث في التكبّر

عن الصادق عليه السلام: «**إن المتكبرين يجعلون في صور الذر يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب**»[1]؛ هذا الحديث يحتمل أمرين:

الأول: أنّ الصورة الغيبية للتكبر هي صورة النمل الضعيف، لأن نفس المتكبر صغيرة، والصور الملكوتية الغيبية تابعة للملكات النفسانية، والبدن ظل الروح في عالم الملكوت، وتابع لها، فيسري صغر الروح

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ ص ٢٣٥ باب الكبر الحديث ١١.

وحقارتها إلى البدن، وتجعله على صورة حيوان ضعيف يسحق تحت أرجل الناس، إلى أن يفرغ الناس من الحساب.

الثاني: أن تكون تلك الصورة الملكوتية الغيبية عكس عمل الأطوار الملكية الدنيوية، ولما كان قد أعدّ نفسه في هذه الدنيا عظيمة، فالحق تعالى جعله في ذلك العالم صغيرًا وحقيرًا.

وعن الصادق عليه السلام: «**إن في جهنم لواديًا للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله عز وجل شدة حره، وسأله أن يأذن له أن يتنفس، فتنفس فأحرق جهنم**»[1].

وقال أبو جعفر عليه السلام: «**العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئًا منه أكبّه الله في نار جهنم**»[2].

---

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الكبر الحديث ١٠.

(٢) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الكبر الحديث ٣.

المقصد التاسع عشر

التُؤَدَة وضدها التسرع

التُؤَدَة على وزن الهُمَزَة، بمعنى: التثبت بالأمر، وبمعنى: الرزانة، والتأنّي[1]، وبمعنى: الطمأنينة في الحركة؛ والتسرع: مقابل هذه الأمور.

والرزانة والتأني من الصفات النفسانية، وآثارها في الظاهر أيضًا الطمأنينة وثقل الحركة.

فإذا حصلت الرزانة والوقار في القلب، تحصل الرزانة في الرأي، والعقائد، والأفعال، والأقوال؛ والعجلة، والتسرع أيضًا يسريان من القلب إلى الظاهر.

---

(١) لسان العرب: ص ١٥ ح ١٩١ ومجمع البحرين ج ٣ ص ١٥٣.

وقد أولت الشريعة المطهرة حفظ الظاهر والصورة اهتمامًا كبيرًا، حتى أنها وضعت أحكامها في كيفية الجلوس، والقيام، والمشي، والتكلم؛ لأن جميع الأعمال الظاهرية تضع في النفس والروح ودائع، تحصّل للروح بواسطتها تغييرات كلية؛ فإذا أعمل الإنسان الوقار والسكنية والطمأنينة في الأعمال الظاهرية، ولو بالتكلف والتصنع، حلّت بالتدريج في باطن الروح ملكة الطمأنينة والتثبت، وهي مبدأ الكثير من الخيرات والكمالات.

إنّ التؤدة في الحديث الشريف هي التأني، وهو الاعتدال في القوة الغضبية، يقابلها التسرع الذي هو حد إفراطها.

ولعل المراد منه أيضًا: التثبت الذي هو أيضًا من اعتدال القوة الغضبية، ومن فروع الشجاعة، وهو تحمل النفس للشدائد، وصبرها على حوادث العالم المختلفة؛ ولعل الآية الشريفة: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1] إشارة إلى مقام النفس هذا.

آثار التُؤَدَة

أولا: الثبات، والاستقامة في الأمور، يوجبان الاستقامة في المعارك الحربية، فلا يقصر في الذب عن النواميس الإلهية، ولا في الأمور الروحية

(١) هود: ١١٢.

غير الملائمة. وعكس هذا التسرع، فالإنسان لا يستقر بسببه في شيء، ولا يملك نفسه في الحوادث الروحية، ولا في الشدائد الجسمية، ويحصل من هذا الخلق السيء مفاسد كثيرة فردية واجتماعية.

ثانيا: طمأنينة النفس، والثبات، هما اللذان يجعلان الإنسان قادرًا على التغلب على القوتين الغضبية والشهوية، وعلى عدم الاستسلام لسطوتهما.

ثالثا: طمأنينة النفس، وثبات القدم، يمنعان من نفوذ أخلاق الغرباء، وطباع المنافقين في الإنسان، ويمنعانه من أن يكون لعبة في يد الحوادث؛ فلو ذهبت سيول الأخلاق القبيحة بجميع الناس، لقام هو كالجبل الراسخ في وجه كل شيء، من دون أن يستوحش من الوحدة. هذه الروح العظيمة كانت في الأنبياء العظماء فقاموا فرادى مقابل الأفكار الجاهلية في العالم؛ فنهضوا ولم يخافوا، ولم يستوحشوا من وحدتهم، وكثرة المخالفين. إنّ هذه الروح الثابتة المطمئنة، هي التي تحفظ الفئة القليلة في مواجهة الفئات الكثيرة، فتغلب ممالك العالم العظيمة على رغم قلة عددها وعُدَّتها.

إن العجلة، والتسرع، وعدم الثبات والقرار، تأتي من خوف عدم الوصول إلى المآرب النفسانية، واللذات الحيوانية، أو من فقدان المقاصد الحيوانية. وإن قلبًا شع فيه نور التوحيد، ومعرفة كمال المطلق، يكون ذا

طمأنينة، وثبات، وتأنٍ، وقرار. وإن قلبًا أصبح نورانيًا بمعرفة الحق جل وعلا، يرى مجاري الأمور بقدرته تعالى، ويرى نفسه وجدّه، وحركته، وسكونه، وجميع الموجودات، منه، ولا يرى زمام أمر الموجودات بيدها. قلب كهذا ليس فيه اضطراب، أو تسرع، أو عدم قرار. وإن قلبًا محتجبًا عن المعرفة، وداخلًا في حجب الإعجاب بالنفس، وحجب اللذات الحيوانية، يخاف من فوت هذه اللذات، وشخص كهذا يفقد طمأنينة القلب، ويقدم على الأمور بعجلة وتسرع.

الدعاء

أهل المعرفة يقولون: الدعاء على ثلاثة أنواع:

الأوّل: دعاء العامة، للاستعجال؛ كي لا تفوتهم المقاصد الدنيوية والحيوانية.

الثاني: دعاء أرباب الحكمة، لأنهم يظنون أن قضاء الحق تعالى مقيد بالدعاء، فمن هذه الجهة يدعون.

الثالث: دعاء أصحاب المعارف؛ امتثالا لأمر الله، لإنهم خرجوا من أسر النفس، ولم يتفوهوا بالدعاء من أجل أمانيّ نفوسهم، ولذاتها.

إن نظر أولياء الله إلى الدعاء أنّه انقطاع إلى الحق تعالى، فلا يجعلونه ولا يجعلون مناجاته والخلوة معه، وسيلة لعبادة النفس وحبها، بل كل ما يطلبونه وسيلة لفتح باب مناجاة الحبيب.

انظر إلى المحب الحقيقي، والمجذوب المطلق علي بن أبي طالب عليه السلام ماذا يقول في دعاء كميل: «**فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني يا إلهي صبرت على حر نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك**».

فعلي بن أبي طالب عليه السلام مبدأ سلسلة عشاق الله، لا يطلب الجنة للجنة، وإنما يطلبها لأنها دار كرامة الله. ونحن المساكين كل ما نطلبه فهو لأنفسنا، ونطلب الله أيضًا لأنفسنا.

إلهنا نجّنا من هذه الغفلة وحب النفس وحرّر قلوبنا من أسر الشهوات والإنغماس في اللذات، يارب إن حجاب حب النفس والإعجاب بها منعنا من الوصول إلى جنابك، وصرف قلوبنا عن المحبوب المطلق. فارفع بيد قدرتك هذا الحجاب.

بيني وبينك إنّيّي ينازعني فارفع بلطفك إنيّي من البين[1]

(١) ديوان الحلاج: صفحة ٩٠.

المقصد العشرون

الحلم وضده السفه

الحلم: ملكة تحصل بها طمأنينة النفس، فلا تهيج قوتها الغضبية بسرعة من دون مسوّغ، من شعب اعتدال القوة الغضبية؛ ويقابله السفَه بفتح الفاء.

مخاطر انحراف القوة الغضبية

إن الإفراط في الغضب المبتلى به أكثر الناس، والذي عبر عنه في الحديث الشريف بالسفه، من رذائل الأخلاق، التي توقع الإنسان في التهلكة، وربما تكون سببًا لشقائه في الدنيا والآخرة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل**»[1].

---

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الغضب الحديث ١.

إن هذه القوة تفوق سائر القوى خطرًا،لأنها قد تؤدي إلى تفكّك أسرة، وقد تخرج الإنسان، في دقيقة واحدة، من الوجود كله، ومن سعادة الدنيا والآخرة.

ولعل هذه النار المشتعلة في هذا الإنسان، التي اشتعلت بيد الشيطان، صورة: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ في ذلك العالم، أي عالم بروز السرائر، وكشف الحقائق، ولعلّ باطنها حقيقة نار الغضب الإلهي، التي هي أشد النيران، وأكثرها إحراقًا، وتبرز من باطن القلب إلى ظاهر البدن، كما أن نار الأعمال التي هي من جهنم الأعمال، تسري من الظاهر إلى الباطن، والإنسان بين هاتين النارين: الباطنية، والظاهرية، في ضغطات لا تطيق جبال هذا العالم لحظة منها.

فإذا تمكنت صورة الغضب في النفس، وصارت ملكة باطنية للإنسان، ووقع حكم المملكة تحت تصرف النفس السبعية، وصارت الصورة الأخيرة للإنسان هي صورة السبع، فسيحشر الإنسان في عالم البرزخ، والقيامة على صورة السبع؛ والسباع البرزخية الملكوتية تختلف كثيرًا عن السباع المُلكية الدنيوية، **وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير»**[1].

(١) علم اليقين: الفيض الكاشاني المجلد ٢ صفحة ٩٠١.

إن الإنسان في أفق الكمال، والجمال، واقع في صف الوجود الأعلى، لا يوازيه شيء من الموجودات، وفي ناحية النقص والقبح، لا يوازيه أحد من الموجودات أيضًا.

فعلى الإنسان اليقظ المؤمن بعالم الآخرة، أن يعالج نفسه بأي حيلة ورياضة، ويطهر قلبه من هذه الرذيلة الخبيثة، لأنّه إذا انتقل مع هذه الملكة من هذا العالم، فإلى أن تشمله شفاعة الشافعين يقع في شدائد، وعقوبات، يمكن أن تمتد على امتداد عمر الدنيا حتى ينال الشفاعة، لأن الشفاعة في ذلك العالم ليست أمرًا جزافًا، بل هناك تناسب بين الشافع والمشفوع له.

علاج أسباب السفه والغضب المفرط

وهي كثيرة، وأهمها هو الشعور بالمزاحمة على أحد المطالب النفسانية، كالكلاب إذا اجتمعت على جيفة، فإذا حصل التزاحم يفور غضبها، وتبدأ الحرب والنزاع، فعن مولى الموالي علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إنما الدنيا جيفة والمتوافون عليها أشباه الكلاب**»؛ وهذا من أحسن التشبيهات، لأن التكالب بين أبناء الدنيا يفوق التكالب على هذه الجيفة النتنة. فلو طهّر الإنسان نفسه من حب الدنيا، لتساهل في الأمور الدنيوية، واحتفظ بطمأنينة النفس، على الرغم من فقدان الجاه، والمال، والمنصب، والرئاسة، وحصلت فيه حقيقة الحلم، والصبر، وطمأنينة النفس.

وأحسن علاج لقطع حب الدنيا، هو التفكر في أحوال الماضين، ولا سيما في القصص القرآنية، والاعتبار بأحوال الأشخاص الذين تمتعوا بأنواع السلطنة والعظمة والمال والمنال.

علاج الغضب في حالة الفوران

ذلك بأن يهيئ موجبات انصراف النفس، كمغادرة المكان الذي وجدت فيه أسباب الغضب، وإذا لم يمكنه الخروج فليحمل نفسه على تغيير وضعه، كأن يجلس إذا كان قائمًا، أو يستلقي إذا كان جالسًا، ويشغل نفسه بالأمور المخالفة لأسباب الغضب؛ ففي الحديث الشريف: «**فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه، فليلزم الأرض، فإن رجس الشيطان ليذهب عنه عند ذلك**»[1]؛ وفي خصوص الأرحام عن الباقر عليه السلام: «**وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه، فليمسه، فإن الرحم إذا مست سكنت**»[2].

وإذا طغى الغضب على الإنسان، واستلب العنان من يده، واشتد، واشتعل، فعلى الآخرين أن يعالجوه، بغير الموعظة، كالتخويف، أو حضور أشخاص يحتشم منهم.

---

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الغضب الحديث ١٢.

(٢) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الغضب الحديث ٢.

فضائل الحلم وتحصيله

حسب الحلم فضلًا أن الله تعالى في القرآن الكريم نسبه إلى نفسه؛ فقال﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[١] فهذا دليل على أن الحلم من الأوصاف الكمالية المطلقة.

وقد وصف سبحانه وتعالى إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وهو من أعاظم كمّل دار الوجود، بالحلم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢]؛ ووصف إسماعيل عليه السلام ذبيح الله، أيضًا بالحلم، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[٣] في مقام البشارة لإبراهيم عليه السلام، فانتخب هذه الصفة من بين جميع أوصاف الكمال.

وعن باقر العلوم عليه السلام أنه قال: «**إن الله عز وجل يحب الحيي الحليم**»[٤]، وهذا المدح عند أهل المحبة والمعرفة أعظم المدائح، لأن المحبة الإلهية لا تقاس عندهم بشيء ولا يوازيها شيء.

أما كيفية تحصيل الحلم، فإذا واظب الإنسان في الحركات والسكنات، على العمل بالسكينة والهدوء، والتصرف في الأعمال

---

(١) الإسراء: ٤٢

(٢) هود: ٧٥

(٣) الصافات: ١٠١

(٤) أصول الكافي ج٢ ص ٩١ باب الحلم ح٤.

الصورية كذوي الحلم، فستتسرب هذه الصورة الظاهرية إلى الروح، فتتأثر بها؛ كذلك إذا كظم الغيظ مدة، وتكلّف الحلم، فهذا التحلّم ينتهي لا محالة إلى الحلم. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**إن لم تكن حليمًا فتحلّم فإنه قل من تشبه بقوم إلا وأوشك أن يكون منهم**»[1].

(١) وسائل الشيعة: المجلد ١٥ باب ٢٦ من أبواب جهاد النفس.

المقصد الحادي والعشرون

الصمت وضده الهذر

الصمت: السكوت عن الهذيان، والهذر، فليس المقصود منه هنا السكوت المطلق، لأن السكوت المطلق ليس من جنود العقل، وليس أفضل من الكلام، بل الكلام في موقعه أفضل من السكوت. قال رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر: «**يا أبا ذر، وإملاء الخير خير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشر. يا أبا ذر، اترك فضول الكلام وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك. يا أبا ذر كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع. يا أبا ذر إنه ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان. يا أبا ذر إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ وليعلم ما يقول**»[1].

---

(١) وسائل الشيعة المجلد ١٢ باب ١١٨ من أبواب أحكام العشرة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل**»[١]

وعن علي بن الحسين عليهما السلام: أنه سئل عليه السلام عن الكلام والسكوت أيهما أفضل؟، فقال عليه السلام: «**لكل واحد مهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت**. قيل وكيف ذلك يابن رسول الله؟، فقال: **لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنما بعثهم بالكلام، ولا استحقت الجنة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا وقيت النار بالسكوت، ولا تجنب سخط الله بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام**»[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، فجعل تعليم البيان في هذه الآية مقدمًا على جميع النعم، في مقام الامتنان على النوع الإنساني؛ فبالكلام تنشر المعارف والحقائق الدينية، وبه تبسط المعالم وآداب الشريعة؛ ولهذا لم يجعل التكلم في هذه الرواية في مقابل الصمت، بل الهَذَر(بفتحتين)، وهو الهذيان والتكلم بأمور لا فائدة منها[٣].

---

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ١٨٢.

(٢) المصدر السابق باب ١١٨ الحديث ٢. والاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ١٤٦ ح١٨٤.

(٣) لسان العرب: الجزء ١٥.

ولما كانت آفات المعاشرة كثيرة، والإنسان لا يستطيع أن يحفظ نفسه منها، فمشايخ أهل الرياضة رجحوا الاعتزال على العشرة[١].

والحق أنه لابد للإنسان، في أوائل أمره، وهو يشتغل بالتعلم، والاستفادة من معاشرة العلماء، والفضلاء، من أن يستفيد في بدايات السير والسلوك، وفي أواسطه، وأوائل نهاياته أيضًا، من خدمة المشايخ، وأعاظم أهل الحال، فلا بد له من المعاشرة.

وإذا وصل إلى النهايات، فلا بدّ من أن يشتغل بحال نفسه مدة، ويشتغل بالحق تعالى وبذكره. وإذا لم يمكنه الجمع في هذه الأوقات بين الخلوة بالحق تعالى، وبين العشرة، فلا بد من أن يعتزل حتى يفيض عليه الكمال اللائق من الملكوت الأعلى؛ فإذا رأى في نفسه حالة الطمأنينة، والاستقرار، والاستقامة، واطمأن من جهة الحالات النفسانية، والوساوس الشيطانية، اشتغل بإرشاد الخلق، وتعليمهم، وتربية عباد الله، وخدمة أبناء جنسه، بمصاحبتهم والاختلاط بهم.

أضرار الهذر والهذيان

الروح السالمة الكاملة تظهر سلامتها وكمالها من منافذ القوى الملكية، كالكوز يترشح الماء الصافي من منافذه، التي هي من منافذ القوى الظاهر

(١) إحياء علوم الدين: الجزء ٢ باب في فوائد العزلة. وشرح مصباح الشريعة للمولى عبد الرزاق الجيلاني. وشرح أصول الكافي لصدر المتألهين الشيرازي.

والباطن﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1]، وهكذا فالروح العليلة الناقصة التي غلبت عليها الشقاوة والمسكنة، ووقعت تحت تصرف الشيطان، وفقدت السعادة والكمال الفطريين، واحتجبت بأنواع الحجب، تعطي صبغتها من منافذ قواها، التي هي روابط بين الملك والملكوت، وهي صبغة الشيطان في مقابل صبغة الله، وتجعل ظاهر قواه الملكية على شكله وشاكلته، كالكوز الذي يظهر الماء المر، والمالح، وغير السائغ، من باطنه إلى الظاهر، بواسطة منافذه التي هي روابطه. وبواسطة هذه الرابطة بين الروح والقوى الظاهرة، تترك الأعمال والأطوار الظاهرة في الروح آثارًا، وبواسطة الأعمال الحسنة والسيئة والقبيحة والجميلة تظهر الملكات الحسنة والفاضلة والأخرى السيئة والخبيثة؛ وإحدى النكات والأسرار في تكرار الأذكار والأعمال الصالحة والتفكر هي حصول الملكات الفاضلة في الروح والملكوت، ولما كانت الأعمال القبيحة والسيئة شديدة التأثير في النفس، لأنها غالبًا تطابق اللذة والشهوة، ويؤتى بها بحضور القلب، وتوجه النفس، نُهي عنها نهيًا شديدًا في الشرائع الإلهية، وكان لابد من تكرار الأعمال الصالحة، والأذكار الحسنة، لأن تأثيرها في الروح بطيء، وقليل جدًا، لمخالفتها للشهوات واللذات النفسانية، ويؤتى بها نوعًا ما بعدم رغبة، وإدبار نفس، وليس فيها حضور للقلب، وإقبال

(١) الإسراء: ٨٤.

للروح، لذا آثارها في الروح والباطن قليلة جدًا، وقد وضعت لتأثيرها في الروح آداب وشرائط ذكرنا بعضها في كتاب آداب الصلاة[١].

وبخصوص كلمات اللغو غير المفيدة، والكلمات القبيحة، وغير اللائقة أيضًا، فلا بد من أن يعلم أنها مضرة بحال الروح جدًا؛ وتسقط عن النفس الصفاء، والصلاح، والسلامة، والوقار، والطمأنينة؛ وتوجب الجلافة، والكدورة، والقساوة، والغفلة، والإدبار؛ وتسقط ذكر الله من الأعين؛ وتذهب بحلاوة العبادة من ذائقة الروح؛ وتضعف الإيمان، وتجعله يتلاشى؛ وتميت القلوب؛ وتدفع الإنسان إلى الزلل، والخطأ، والندم؛ وتسبب النفور بين الأصدقاء، والعداوة بين الناس؛ وتوجب سوء ظن الآخرين بالإنسان؛ وتسقطه من أعينهم.

هذا فضلا عن أنّه قلّما يتفق أن يشتغل إنسان بلغو وباطل، ويعجز عن ضبط لسانه في ظل الميزان الصحيح، ويبقى في الوقت نفسه محفوظًا من المعاصي؛ فلهذا وضعت وصايا كثيرة في شأن الصمت.

والسكوت عن الباطل واللغو، وكف النفس عن الهذيان والهذر، لما كانا يعينان النفس على التفكر والاشتغال بالباطن، وعلى التصفية والتنزيه عن الكدورات، ويقربانها إلى مبدأ الكمال وهو موضع عشق الفطرة، ويرفعان أشواك الطريق، فالصمت من هذه الجهة، من لوازم

---

(١) آداب الصلاة الفصل الرابع.

الفطرة المخمرة، ومن جنود العقل والرحمن، والهذيان، والهذر، واللغو، والباطل، تبعد الإنسان عن الكمال المطلق، وتقربه من الطبيعة، وأحكامها، فهي موضع نفور الفطرة، وموجب لاحتجابها عن مبدأ الكمال.

المقصد الثاني والعشرون

الاستسلام وضده الاستكبار

الاستسلام: إظهار الطاعة، والانقياد، وإطاعة الحق والحقيقة[1]؛ والاستكبار: التمرد، وعدم الطاعة، والطغيان، والكبرياء[2].

إن قلب الإنسان إذا كان سالمًا من الآفات والعيوب يجد الحق بفطرته السالمة، وبعد أن يدركه يستسلم له، فإذا استسلم ينقاد له في الأعمال الصورية القالبية، فيحصل من القلب السالم التسليم، ويحصل من التسليم القلبي الانقياد الصوري، وهذا هو الاستسلام.

وإذا كان القلب معيبًا، وتمكنت فيه آفة الإعجاب بالنفس، وحبها،

---

(١) لسان العرب: الجزء ٦ صفحة ٣٤٥.

(٢) لسان العرب: الجزء ١٢ صفحة ١٣.

يحصل فيه الكبر، فإذا عمل طبقًا لهذه الحالة النفسانية، يقال: تكبر، فإذا تمرد وكان منشأ التمرد هذا الكبرياء النفساني، وعدم إطاعتها، وطغى، يقال: استكبر.

ولو بقي الإنسان على فطرته الأصلية، ولم تحصل له الآفات والعيوب النفسانية، لأدرك الحق تعالى، ولأحبه، وخضع له، وسلّم، فإذا سلّم له يحصل له الاستسلام لا محالة.

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**المؤمنون هيّنون، ليّنون، إن قيّدوا انقادوا، وإن أنيخوا استناخوا**»[1]؛ **فكون الإنسان هينًا، ولينًا، ومنقادًا، ومستناخًا، أمام الحق، من صفات المؤمنين**».

وبالجملة، لما كانت الفطرة الإنسانية تقبل الحق، فيحصل عند ذلك الاستسلام. وإذا احتجبت، ووقعت تحت تأثير عوامل الطبيعة، فرت عن الحق والحقيقة، وحلّت فيها الصلابة، والقساوة، واستكبرت وطغت على الحق.

فعلم أن الاستسلام من جنود العقل والرحمن ولازم للفطرة المخمرة والاستكبار من جنود الجهل والشيطان ومن لوازم الفطرة المحجوبة.

---

(١) بحار الأنوار: المجلد ٦٤ الحديث ٥٨.

المقصد الثالث والعشرون

التسليم وضده الشك

التسليم: الانقياد الباطني، والاعتقاد، والإيمان، القلبيين بالحق تعالى، بعد سلامة النفس من العيوب، وخلوها من الملكات الخبيثة، فإذا كان القلب سالمًا، يسلّم للحق؛ وفي مقابله الشك، وعدم الخضوع للحق تعالى، وهو من احتجاب النفس، ومن العيوب الباطنية، والأمراض القلبية.

فوائد التسليم

التسليم من الصفات الحسنة للمؤمنين التي يتحقق بواسطتها طيّ المقامات المعنوية والمعارف الإلهية. فمن يكن مسلمًا للحق تعالى، وأوليائه، ولم يقل أمامهم (كيف) و(لِمَ)؟ ويسير سيرًا ملكوتيًا بأقدامهم يصل إلى المقصد سريعًا.

ولهذا قال بعض العارفين: إن المؤمنين أقرب إلى المقصد المقصود من الحكماء، لأنهم جعلوا أقدامهم في محل أقدام الأنبياء، ولكن الحكماء يسيرون بقدم عقولهم، ومن كان مستسلمًا للهداية الإلهية يصل إلى المقصود عبر الطريق المستقيم، وهو أقصر الطرق، وليس عليه أي خطر، ولكن الذي يسير بقدمه ربما يقع في الهلاك ويضل عن الطريق.

ولا بد للإنسان من أن يسعى في سيره الملكوتي، لأن يجد هاديًا للطريق، فاذا وجد الهادي فلا بدّ من أن يستسلم له، ويتابعه في السير والسلوك، ويضع قدمه مكان قدمه.

ولمّا وجدنا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هاديًا للطريق، وعرفنا أنه واصل إلى جميع المعارف، فلابد من أن نتبعه في السير الملكوتي، ومن دون (كيف) و(لِمَ). فإذا أردنا أن نعرف فلسفة الأحكام بعقولنا الناقصة، فسننحرف عن الجادة المستقيمة، ونصل إلى الهلاك الدائم، كمريض أراد أن يطلع على سر وصفة الطبيب، ثم يستفيد من الدواء، فهذا المريض لا يرى وجه السلامة أبدًا، لأنه إلى أن يطلّع على سر الوصفة، يكون وقت العلاج قد مضى، فهلك.

إن هذا التسليم يعطي النفس صفاءً كاملًا، ويزيد في نور الباطن يومًا فيومًا، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا ﴾[1].

(١) النساء: ٦٥

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإيمان له أركان أربعة: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عز وجل**»؛ فمن لم يملك هذه الأركان الأربعة فلا إيمان له، ولا يفيد من حقيقة الإيمان بالله.

فإذا كانت الفطرة في الإنسان على حالتها الأصلية، ولم تحتجب بحجابات الطبيعة، فلن يستعمل الاستبداد بالرأي، والتشبث به في الأمور، ولا يعمل الصبغة النفسانية، بل يسلم للحق تعالى بواسطة سلامة الفطرة، ويكون مثل قلبه كمرآة تتجه صفحتها النورانية إلى الحق، فكل ما يرد من عالم الغيب ينتقش فيها، من دون زيادة، أو نقصان أو تصرف، ويسلّم للواردات الغيبية حتى يفقد نفسه كليًا.

قال الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]: «**والقلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه**؛ قال: **وكل قلب فيه شرك، أو شك، فهو ساقط؛ وإنما أراد بالزهد في الدنيا ليفرغ قلوبهم للآخرة**»[2]. فإذا سلّمت الروح، تسلم جميع ممالك الوجود، ثم تسلم جميع الأعضاء الظاهرة، والقوى الملكية أيضًا، وتسليمها أن لا يكون لها، أو لأنانيتها حركة، أو سكون، ويكون قبضها وبسطها

(١) الشعراء: ٨٩.

(٢) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الإخلاص الحديث ٥.

خاضعين لإرادة الحق تعالى، ويحصل فيها نموذج قرب النوافل «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[1].

وفي مقابل التسليم المطلق، التزلزل والشك، وله مراتب، هي:

أولا: الشك الجلي، وهو تزلزل العقائد الظاهرة الجلية.

ثانيًا: الشك الخفي، وهو تزلزل المعارف، وأسرار التوحيد، والتجريد، والتفريد.

ثالثًا: الشك الأخفى، وهو حالة التلون، وعدم التمكن في المقامات المذكورة.

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب من آذى المسلمين واحتقرهم الحديث ـ ٧ ـ ٨.

المقصد الرابع والعشرون

الصبر وضده الجزع

قال المحقق العارف خواجة الأنصاري: الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى[1]. فالصبر متقوم بأمرين:

أحدهما: أن يكره كراهة باطنية ما يرد عليه.

والآخر: أن يمتنع عن إظهار الشكاية والجزع إلى غير الحق، وأما الشكاية إلى الله فلا تنافي مقام الصبر.

والصبر بحسب هذه المرتبة المذكورة من مقامات المتوسطين؛ لأن النفس مادامت تكره الواردات من جانب الحق تعالى، فمقام معارفها، وكمالاتها ناقص؛ والكمال الأرفع من هذا المقام، أي مرتبة الرضا

---

(١) شرح منازل السائرين: لكمال الدين عبد الرزاق كاشاني صفحة ١٩٥ ـ ١٩٦

بالقضاء، أن ترضى النفس، وتفرح بما يرد عليها من بليات، وأمور سيئة؛ وتطلب بحقيقة وجودها كل ما يرد من جانب المحبوب.

وما وصف به الأولياء الكمّل أحيانًا إما أن يكون الصبر في المقامات العالية، أو الصبر على الآلام الجسمانية التي توجب مقتضيات الطبائع البشرية التأثر، والتألم منها.

مراتب الصبر

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، فمن صبر عند المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض. ومن صبر على الطاعة، كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش. ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائه درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش**»[1].

ويعلم من هذا الحديث الشريف ثلاث درجات للصبر وهي مبادئ الصبر ومن أمهات صبر المتوسطين.

الدرجة الأولى: الصبر على البليات والمصائب، فلا يشكو ولا يجزع

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب الصبر الحديث ١٥.

عند الخلق، ولكن الجزع عند الخالق ليس نقصًا؛ فالمطلوب إظهار العجز والفقر كما قيل:

ويحسن إظهار التجلد للعدى ويقبح إلا العجز عند الأحبة[1]

وللصبر في المصيبات ثلاثمائة درجة من الثواب، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض.

الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، وذلك بأن يكون الإنسان في طاعة الحق تعالى متمالكًا لنفسه، فلا تأخذ النفس الأمارة الزمام من يد الإنسان وتطلق له العنان. وإطلاق العنان على نحو عام، يكون في مقامين، والصبر في أحدهما أصعب كثيرًا منه في الآخر:

المقام الأول: إطلاق العنان في ترك الطاعات، والصبر فيه أسهل، وهو في هذه المرحلة: مقاومة النفس والشيطان، والإتيان بالوظائف الإلهية بحدودها الشرعية وآدابها القلبية، وهذا من المشكلات، ولقد بينّا في رسالة آداب الصلاة، القليل من آداب مطلق العبادات وشرائطها، ولا سيما الصلاة.

المقام الثاني: إطلاق العنان بعد الإتيان بالعمل، والطاعة؛ والصبر فيه أصعب، فربما يدعو الشيطان، والنفس الأمارة الإنسان إلى الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة، والتبعية للشريعة المطهرة، لسنوات

---

(١) ديوان ابن الفارض، قصيدة نظم السلوك المشهورة بالتائية الكبرى.

طويلة، رجاء أن يبتلى بالإعجاب، وحب النفس، فيسقط على رغم جميع مشقاته ورياضاته؛ فلابد من الاستعاذة بالله تعالى، وطلب المدد منه، وأحيانًا تكون مكائد النفس، والشيطان، دقيقة إلى حد لا يمكن كشفها إلا بتوفيق الله وعونه.

وللصبر على الطاعات ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض والعرش. وهذه الدرجة من الصبر تفوق الدرجة السابقة منه، لجهة تعداد الدرجات وأيضًا لسعتها، لأن سعة كل درجة من تخوم الأرض إلى العرش.

الدرجة الثالثة: الصبر على المعصية، بمعنى: أن الإنسان يصبر في جهاده نفسه، وجنود إبليس؛ وبالاستقامة والمثابرة يتغلب عليهم.

ولهذه الدرجة مقامات، وحقائق، ولطائف كثيرة؛ والصبر في كل درجة من هذا المقام أصعب، وأدق، من الصبر في الطاعات. فإذا نجا أحد من هذه الورطة كان الصبر في الطاعات عليه سهلًا يسيرًا. فالأهم من كل شيء للسالك إلى الله هو الصبر على المعصية.

وكما أن الصبر في مجاهدة قوى الشهوة، والغضب، والشيطنة، التي هي منشأ المعاصي الصورية، من أشق الأمور على الإنسان، والقيام بها أصعب بكثير من الطاعات الصورية، فهكذا الوقوف في وجه الشيطان الأكبر والنفس، وهما مبدأ المعاصي القلبية والباطنية.

وللصبر على المعصية تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش. ودرجات هذا المقام من الصبر تزيد عن درجات الصبر السابقة في عددها وفي سعتها أيضًا، لأن الفاصلة فيها إلى منتهى العرش. وللصبر على المعصية حقائق، وسرائر، لا تدخل في ميزان الدرجات والسعة الجسمانية، فدرجاتها كالصبر نفسه، لابد من أن تكون من المقامات الروحانية، والمعارف الربانية.

إنّ الإنسان الروحاني، الذي هو على فطرته الأصلية الموهوبة من الله، يصبر ويثبت في كل شيء، ولا يكون مطلق العنان، وتغلب قوة روحه على المطلوبات الطبيعية، ولا يضطرب في الحوادث، لأنه متحرر من حب الدنيا، والنفس؛ ففقدانها لا يجعله مضطربًا، لأن جميع الزلاّت تنشأ من حبها.

إنّ الفطرة التي تحب الكمال المطلق، إذا احتجبت بحجاب الطبيعة والنفس، تظن الكمال في المطلوبات الطبيعية والنفسانية، وتجزع لفقدانها وتضطرب، وإذا خرجت من هذه الاحتجابات، فما لا تستسيغه هو فقدان وصال المحبوب فقط، ويكون جزعها على فراق المحبوب حقيقيًا، وصبرها عن الله من أصعب الأمور، والله الهادي.

المقصد الخامس والعشرون

الصفح وضده الانتقام

من أعظم الكمالات الإنسانية تجاوز الإنسان عن الأشخاص الذين أساؤوا إليه، وصفة العفو من الصفات الجمالية للحق تعالى، والاتصاف بها تشبّه بالمبادئ العالية؛ ومن وقع تحت تربية رب العالمين، وصار مربوبًا لذات الحق تعالى المقدسة، لابد من أن تتجلى فيه صفات جمال الحق جل وعلا، ويصير مرآة لجمال الجميل الإلهي، ومن أعظم صفات الحق، الرحمة للعباد، والتجاوز عن السيئات، والعفو من الخطيئات.

إن جذر الصفح والتجاوز يرتوي من ترك حب الدنيا والنفس، وجذر الانتقام والغضب في غير موضعهما ـ وهو المقصود في هذا المقام ـ يرتوي من حب الدنيا، والنفس، والاهتمام بالمآرب الدنيوية.

إن الذين هم على الفطرة الأصلية، وباقون على روحانيتهم الفطرية، مبرؤون من التلوث بمحبة الدنيا والنفس، وعارون عن التكالب، الذي هو من خواص النفس السبعية؛ وأما المحتجبون بحجاب الطبيعة، فلما كانوا مشتغلين بالأماني النفسانية، والمطلوبات الطبيعية، فيتكالبون على جيفها، ويستعملون القوة الغضبية في خارج إطارها؛ والوسائل التي أعطاها الله تعالى من أجل الخلاص من فخّ الدنيا والطبيعة، صارت هي نفسها وسائل للوقوع في ذلك الفخ، فهم يخونون النعم، والأمانات الإلهية، ويمدّون إليها يد النفس القذرة الأمارة بالسوء.

قال صلى الله عليه وآله: «**من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم، وجرعة مصيبة تردها بصبر**»[1].

(١) أصول الكافي: المجلد ٢ باب كظم الغيظ الحديث ٩.

المحتويات

مقدّمة..... ٧

مقدمة المترجم..... ١١

لُباب مقدمة الإمام الخميني..... ١٣

في الحديث الشريف تيمُّنًا وتبركًا..... ١٥

المقصد الأول: الخير وضده الشر..... ١٩

وجميع الأحكام الإلهيّة تنقسم على مقصدين:..... ٢٠

المقصد الثاني: الإيمان وضده الكفر..... ٢٥

الإيمان مطابق للفطرة، والكفر خارج عنها..... ٢٨

طريق تحصيل الإيمان..... ٢٩

المقصد الثالث: التصديق وضده الجحود..... ٣٥

في إصلاح النفس من الجحود..... ٣٦

المقصد الرابع: الرجاء وضده القنوط..... ٤١

الفرق بين الرجاء والغرور ٤٢
الفرق بين الخوف والقنوط ٤٤
الجمع بين الخوف والرجاء ٤٧
المقصد الخامس: العدل وضده الجور ٤٩
في تحصيل فضيلة العدالة ٥١
المقصد السادس: الرضا وضده السخط ٥٥
مراتب الرضا ٥٧
مبادئ مقام الرضا ٥٩
ابتلاء المؤمنين ٦٠
المقصد السابع: الشكر وضده الكفران ٦٣
مراتب الشكر ٦٣
المقصد الثامن: الطمع وضده اليأس ٦٧
تأثير الطمع واليأس ٦٨
المقصد التاسع: التوكل وضده الحرص ٦٩
أركان التوكل ٧٠
مراتب التوكل ٧٣
التوكل في الكتاب والسنة ٧٤
الحرص ٧٥

المقصد العاشر والحادي عشر: الرأفة والرحمة وضدهما القسوة والغضب..... ٧٧
تأثير الرأفة..... ٧٨
القسوة والغضب..... ٧٩
ثمار القوة الغضبية..... ٧٩
انحراف القوة الغضبية..... ٨٠
علاج الغضب..... ٨١
المقصد الثاني عشر: في العلم وضده الجهل..... ٨٣
العلم من أفضل الفضائل..... ٨٤
المقصد الثالث عشر: الفهم وضده الحمق..... ٨٧
المقصد الرابع عشر: العفة وضدها الهتك..... ٩١
ثمار القوة الشهوية..... ٩٢
تأثير الأعمال في القلب..... ٩٤
المقصد الخامس عشر: الزهد وضده الرغبة..... ٩٧
درجات الزهد..... ٩٨
منزلة الزهد..... ٩٩
الرغبة في الدنيا..... ١٠٢
المقصد السادس عشر: الرفق وضده الخرق..... ١٠٣
الرفق في أمور الإنسان..... ١٠٤

المقصد السابع عشر: الرهبة وضدها الجرأة..... ١٠٧
درجات الخوف..... ١٠٧
المقصد الثامن عشر: التواضع وضده الكبر..... ١١١
درجات التواضع والتكبر..... ١١٣
شرح الصدر وضيق الصدر..... ١١٤
موعظة في التواضع..... ١١٦
أحاديث في التكبّر..... ١١٨
المقصد التاسع عشر: التُؤَدَة وضدها التسرع..... ١٢١
آثار التُؤَدَة..... ١٢٢
الدعاء..... ١٢٤
المقصد العشرون: الحلم وضده السفه..... ١٢٧
مخاطر انحراف القوة الغضبية..... ١٢٧
علاج أسباب السفه والغضب المفرط..... ١٢٩
علاج الغضب في حالة الفوران..... ١٣٠
فضائل الحلم وتحصيله..... ١٣١
المقصد الحادي والعشرون: الصمت وضده الهذر..... ١٣٣
أضرار الهذر والهذيان..... ١٣٥
المقصد الثاني والعشرون: الاستسلام وضده الاستكبار..... ١٣٩

المقصد الثالث والعشرون: التسليم وضده الشك..... ١٤١
فوائد التسليم..... ١٤١
المقصد الرابع والعشرون: الصبر وضده الجزع..... ١٤٥
مراتب الصبر..... ١٤٦
المقصد الخامس والعشرون: الصفح وضده الانتقام..... ١٥١
المحتويات..... ١٥٣